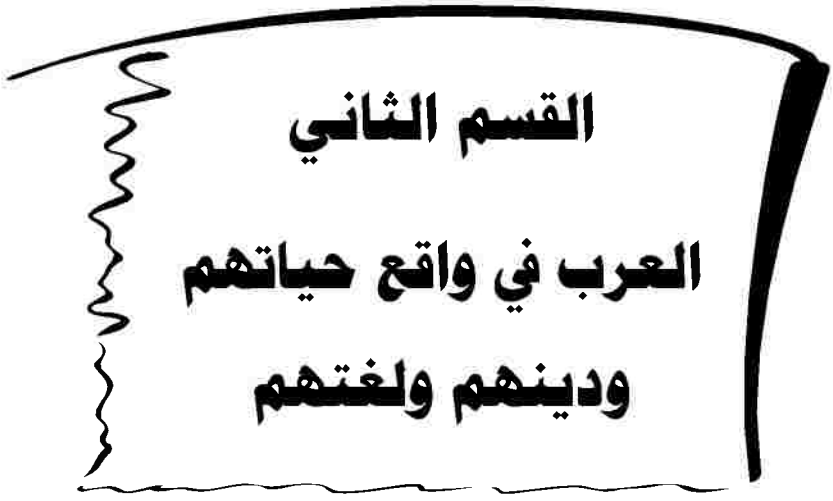

القسم الثاني

العرب في واقع حياتهم ودينهم ولغتهم

الفصل الأول

العربي عاش بالحرية واقعًا حيًا
هو بطله المغتربون في وطنهم

المغتربون في وطنهم :

لأسباب كثيرة يجري بيانها تباعًا في هذا الكتاب ظلت حياة البداوة العربية الأولى وهي تبدو في أعين الشرق المترف، والغرب الطامع، كأنها "أسطورة" غير متكاملة الأجزاء لحياة شديدة القسوة والجفاف والتكرار الممل. لقد كانت عزلة العرب قبل الإسلام وراء أسوار حريتهم، واستقلالهم بحياتهم الغنية بالحياة، مع ضعف وسائل الاتصال بهم، أو بلغتهم الفصحى، مع أنهم عاشوا سادة طرق التجارة العالمية أزمانًا طويلة – من أهم الأسباب التي أوقعت أكثر المتحدثين عنهم من قرب أو بعد، في حلقات مفرغة من الوهم، والتشكيك، والزراية، بل واختلاق المثالب والمطاعن عنهم، وبخاصة وأن حكم هؤلاء المتحضرين على حياة البداوة لا يملك إلى اليوم إلا هذا المعيار الخاطئ الذي يحكمون به على مجتمع ما بحجم ونوع الأشياء والأدوات التي يستخدمها الناس في هذا المجتمع للرفاهية والترف، وليس كما هو عند العربي، وكما هو بلغة الدين وشرائعه: معيارًا يقيس نوع العلاقات التي تحكم الناس باتجاه السواسية والعدل والرخاء في استخدامهم للأشياء والأدوات، التي مهما كانت ندرتها فليس فيها أدوات أو أشياء مستخدمة ضد السواسية، أو ضد العدل، أو ضد الرخاء.. أو ضد إنسانية الإنسان:

لقد كان سؤال البدوي لنفسه في قضية "الأشياء" هو لماذا الأشياء؟ ثم هو "لمن الأشياء؟.. فعلى الشق الأول لزم أن تكون الأشياء مستخدمة باتجاه أخلاقي وديني. وعلى الشق الآخر أصبحت منافع الأشياء التي تقرر علاقات السواسية والعدل والرخاء في المجتمع هي "للجميع".. وليس إلى طبقة تسخر الجميع.. وتخادع الجميع!

ولهذا فإنه في الوقت الذي كان البدوي العربي يعيش حرًا في جزيرته الحرة بغير ملوك ولا كهان ولا أساطير، وحيث كان يملك فيه طرق

التجارة العالمية بين أوربا والهند برًا وبحرًا فلم يبدله الغنى بالتجارة عن نهجه، ولم يصرفه اختلاطه بأهل الحضارات الوثنية عن دينه وربه، ومسجده المحرم والحج إليه – فإن أخلاق العربي، وحريته، وقدرته على التعبير عن رأيه، والتحقيق لإرادته، بل إن دينه النقي من التبعية للملوك والكهان، والمضيء بالحقائق الجلية بعيدًا عن غياهب الأوهام والأساطير – لم يلفت إليه بالاهتمام إلا في بعض المناسبات – أحدًا من الفرس الغارقين في المذلة والخرافة تحت جبروت أكاسرتهم، ولا أحدًا من الروم الذين بدورهم عاشوا يسرقون العرب، ويهذرون بإدعاء الحكمة، ويتذابحون وهم غرقى في الخمر والمنكر على خلافاتهم الوثنية، أو حول طبيعة المسيح، وحول كيفية وقوع هذا الأمر الذي اختلقوه من حلول اللاهوت في الناسوت!

بل إن كسرى المتأله على عبيده ورعاياه من الفرس رغم أنهم يزعمون أنهم "الآريون" أي السادة – كان يسمي العرب زراية بقلة الأشياء التي في حوزتهم، وبالحرمان الذي يعانونه من الثياب الفاخرة والمطاعم المسبكة. كان يسميهم: رعاة الإبل والغنم.. فماذا في نظره كان يملك هؤلاء الرعاة الفقراء من "أشياء" يستحقون بها الاحترام؟ بينما كان شبيهه في السلطان الغشوم وهو قيصر الروم يسمي هؤلاء العرب على نفس القياس إلى الترف وتملك الأشياء بأنهم "الحفاة العراة الجياع"!

ولكن خلال عشرات القرون منذ فجر التاريخ، وحيث لم تخضع جزيرة العرب لقاهر أجنبي، ظلت القبائل العربية في بحار الضوء، والأمن، وهذه الحركة الموصولة بين الإنسان العربي والأشياء الجميلة المحيطة به، التي كان يملكها وحده ، ويستثمرها وحده، في وحدة شاملة، وحكمة بالغة، تتخلق فيها مفردات لغته وهي تنمو نمو اللآلئ في هدوء هذا البحر السابغ من أضواء النهار، وأنوار الليل حتى تكاملت في جمالها وجلالها

وآلائها لتصبح هي لغة القرآن المبين، والإنسان المؤمن؛ والمجتمع الصادق، والحضارة الإنسانية العالمية العلمية المشرقة.. وعندئذ ظهر الإسلام.

لقد ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي لتتجمع فيه قوة الدين كله، وتسفر به خصائص وطاقات الأجيال العربية كلها، ولتبلغ به الحضارة الدينية العربية أسمى ما يمكن أن تبلغ إليه في هذا العالم، وأسمى ما كانت تسعى إلى إعلانه وإقراره منذ فجر التاريخ..

في هذه المرة لم يعد في الإمكان – رغم استمرار خطط وأشكال وأهداف الزراية القديمة بالعرب – أن تحجب قوة شرقية في الشرق أو استعمارية في الغرب ضياء هذه الشمس التي أشرقت من مركز العالم القديم والحديث.. من أفق الجزيرة العربية، ومركز الحضارات الشامخة الأولى في مصر والشام والعراق، ساطعة بهذا الإشراق وهي تشكل فكر العالم الجديد – بعد الإسلام وتقود متغيراته، وتفك ألغازه وطلسماته، وتذيب وتبدد سحب أوهامه وأساطيره وخرافاته، حتى أعماق الظلمة في غابات آسية وأفريقية، وفوق سطوح الجليد المتراكم على وجه وعقل وفلسفات وجاهليات أوربا من الجنوب على الشمال، ومن الشرق إلى الغرب!

في هذه المرة أصبح القرآن المبين الذي يتلوه المسلمون إلى اليوم، ومهما اختلفوا على فهمه: عربًا خلّصًا.. أو عربًا شرقيين، أو شرقيين مستعربين أو شرقيين مستعربين متفرنجين – هو الإطار الجامع نحو الاتفاق لكل هؤلاء المتباعدين، وهو نقطة المركز لأي وجود حضاري، وجذور للتراث وحقائق للأصالة في وجدان هؤلاء المتدافعين بأيديهم، والمتقاربين بوحدة ألسنتهم وصفوفهم ومصائرهم. بعد أن انتظم وجودهم بالقرآن ولغته وشريعته زمانًا لا يمكن إسقاطه في حياتهم المعاصرة إلا إلى بديل واحد هو الهباء والعدم..!

في هذه المرة، وبعد ظهور الإسلام، لم يعد العرب الأولون رغم كل شيء مغتربين في وطنهم عن مواطني أرضهم وحفدتهم. لقد أصبح المصري والسوري والعراقي والليبي والجزائري والسوداني أقرب إلى تصور العربي والبدوي الأول تصورًا صحيحًا من ذلك التصور الذي كان للمصري القديم في مصر، والآرامي والسرياني في سورية، وللبابلي والأشوري في العراق منذ آلاف السنين.. وبالضرورة فإنه مع استقبال المسجد الحرام في الصلاة، والحج إليه كل عام، وقراءة حياة العرب الأولى بمقوماتها الأساسية، ونعمها الكثيرة، في القرآن الكريم.. كل يوم.. يصبح من اليسير، ومن الواجب، أن تصحح الأجيال العربية المعاصرة تصورها لأسلافها من العرب الأوائل.. وأن تكون أقدر على مقاومة الغزو الأوربي الفكري ضدهم، وأن تكون أنشط في نفس الوقت على استعادة مقومات الوجود العربي المعاصر من مصادرها الصحيحة في الدين واللغة والتاريخ، لتدفع بهذه المقومات في ضوء العصر، ولغة العصر، في حركة واعية ومستهدية نحو التقدم بالأمة العربية، تقدمًا ترجع فيه إلى أصالتها.. وليس إلى التبعية أو المحاكاة والتقليد لأعدائها!!.

الحرية والدين:

في جزيرة العرب التي جعلها الله مسكن العربي ومسرحه وحصنه في قلب العالم القديم والحديث بنى هذا الإنسان صرح حريته، الذي هو صرح أخلاقه، من خلاصة ما أنعم الله به عليه في جزيرته التي امتحنه فيها بالآلاء والشدائد وهو يؤويه وينميه، ويعرب لسانه ويجتبيه.. هذه النعم التي تمثلت في قدرته على تملك منافع هذه الأشياء الجميلة المحيطة به في عناصر الطبيعة.

وما كانت هذه النعمة بالحرية لتنتهي إلى هذا الذي تبدى بعيداً عن الأنهار والحصون والمدن في صحاريه وبواديه من غير أسوار أو قلاع إلا بنعمة هذا الترحل نفسه فوق البداء والعراء، الذي أفاض عليه بالحركة، والسمع، والبصر، وبالحوار الصادق بينه وبين نفسه، وبينه وبين ذويه، وبينه وبين الآيات المحيطة به، والمتعاملة بالأمانة معه – هذا العلم الذي يفوز به الراحل على القاعد، والمتحرك على الساكن، والمتفكر في قضية الخلق داخل حركته مع الخلق – على المستغشي على فكره في أغوار نفسه منفصمًا عن الحياة والخلق..

وكان لابد في مجرى الزمان الطويل، ومع التحصيل لعلم الوجود، من خلال الوجود في الوجود، والحركة المتسقة مع الوجود، ومن خلال هذا التثقيف المستمر للسمع والبصر، والعقل والقلب، والإرادة والنفس، أن تنشأ من الإشارة، والصوت العفوي، والحوار العملي مع الأشياء بأصواتها وصورها وقوانينها – هذه اللغة البالغة حد الكمال في بيانها وإعرابها، وأصواتها وصورها، وإيقاعها وأفكارها، لتكون له أنس بدائه، وهدى متاهاته، وإيقاع إنسانيته، وسط هذه الأشياء التي تحمل له الخيار بين الحياة والموت، والهدى والضلال، والتي لا يعني الضلال فيها إلا العجز والموت، ولا يعني الهدى بها إلا الأمن والحياة..

بهذه اللغة التي امتد بيانها للإنسان العربي البدوي أفقيًا باتساع ما بين الآفاق وعموديًا بارتفاع ما بين الأرض والسماء – أصبح هداه بين السماوات والأرض علمًا، وأصبح علمه بهذا الهدى دينًا يقوده إلى من أنعم عليه.. يقوده إلى الله الحق.. الذي هو كما عرفه بلغته ودينه، وعمله، فوق الآلهة البشرية، أو التي على صورة البشر، في ديانات وأساطير الشعوب الأخرى..

بهذا الدين الذي أرسى عليه إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت الله في مكة؛ وهما يرفعانها بتجديد دعوة الإسلام، ودعوة الحج إلى هذا البيت، ووحدة العرب بالإسلام والحج – تحدد العامل الأساسي في تشكيل خصائص العرب قبل ظهور الإسلام، كما تحدد أنه بعد ظهور الإسلام هو العلم المرشد، والحاكم الموجه لهذه الأمة في تعاقب أجيالها، وعلى كل ساحات نشاطها الفردي والجماعي، في الرأي والسياسة، والاجتماع والاقتصاد، والأدب والتعبير..

وبهذا الدين الذي أصبح هو النهر الدائب الجريان في ظاهر وباطن حياتهم أصبح "الصدق" بالدين هو الظاهرة المميزة لكل جوانب هذه الحياة، والساطعة بطابع الإخلاص والأمانة والإيجاز في كل هذه الجوانب..

لقد كان أول الصدق هو معرفتهم "الله" بأسمائه الحسنى وصفاته، وليس بذاته التي لا تحد ولا تدرك، والتي أشاروا إليها أبلغ الإشارة في دلالة "هاء" الغائب عليه تعالى، والتي تصبح بعد أل التعريف، وأل التعظيم.. "الله".

كما لم ترتق إلى النطق باسمه تعالى هكذا منزهًا عن التجسيد والتشبيه أية لغة أخرى من لغات العجم في الشرق والغرب.. هكذا هو "الله" الغائب عن الحواس والأبصار، والحاضر بمشيئته وأمره في كل شيء، وكل نفس، ملء السماوات والأرض، مما تدركه ولا تدركه الحواس والأبصار.

ولقد كان الصدق بعد ذلك هو القرآن والإسلام في قوله تعالى "والذي جاء بالصدق وصدق به" وهذا هو علم الدين..

ثم كان الصدق بعد ذلك هو صدق الواقع، وعلم التاريخ، في قصص القرآن الحق، الذي يحكي من الواقع البشري في الأمم المتعاقبة سنن الله في هذا الواقع وهو يقص بها قوانين علم الإنسان في تجارب التاريخ وأحداثه التي لا تتغير أحكامه جيلًا بعد جيل..

في جو هذا الصدق في الإيمان بالله، والصدق في شرائع الله، والصدق في سنن علم الإنسان المستقاة من "القصص الحق" عاش العرب بالحرية والدين واللغة واقعًا حيًا كاملًا متكاملًا كانوا هم "أبطاله" في كل الأحوال، أي كانوا أبطاله إذا تحدثوا عن أنفسهم وما فعلوه، أو إذا ما تحدث عنهم غيرهم وهو يقص أخبارهم وأعمالهم، أو إذا تحدث التاريخ عنهم بالحق والصدق وهو يتتبع أخبار هذه الأفعال والأقوال..

في جو هذا الصدق، والإيمان بالله، والالتزام بوصاياه في حركة الحياة تجاوز العرب قبل الإسلام وبعده كل ظنون الوثنية وفلسفاتها شرقًا وغربًا، وذموا الخمر، وترفعوا عن سقطات الجنس، وابتذال الجسد، وارتفعوا بالصدق والإيمان إلى رؤية شاملة للحياة تبدو فيها الدنيا طريقًا وجسرًا إلى حياة أجدى وأبقى بعد الموت، فلم تعد الدنيا عندهم إلا في الغفلات العارضة لهوًا ولعبًا، وزينة وتفاخرًا، وأصبح أعظم ما يطربهم فيما استأثروا به من عيشهم، عطاء يخلطون به الفقير بالغني، وحرية ومروءة يبذلون عنهما النفس والمال، ونشيدًا بالشعر يسمعون إليه، أو يتنفسون به، وهم يتذكرون الدين والمعروف والآباء، ليظل الطريق إلى الله ونعمته، والجهاد في سبيله، مفتوحًا لهم.. ولأبنائهم من بعدهم.. وحيث لا مكان للظن بعد اليقين، أو للوهم بعد الصدق، أو للأسطورة والمسرح بعد انتصار "البطل" في واقعه الحي، وقصصه الحق، وخبره الصادق..

الأمية والوثنية:

ولكن جوقة الأدباء والمتأدبين من عشاق المسرح وغيبوبته قد قرأوا كثيرًا من كتب المستشرقين التي تتهم العرب الأولين بالأمية بمعنى "الجهل بالقراءة والكتابة" وتتهمهم كذلك بالوثنية، أو بأشكال بدائية منها تجعلهم أدنى وأقل من الوثنيين "الأقحاح"!!

إن مثل هذه الحقائق التي نقدمها عن العرب الأولين، وهي أقل القليل الذي وصلنا عنهم في القرآن الكريم، وفي التاريخ المدون بأيدي الشعوبية، وفي كتب الأدب التي دونوها أيضًا بأمزجتهم – تبدو غريبة جدًا وغير مصدقة بالنسبة لأكثر هؤلاء الأدباء المتأدبين بأدب الغرب أو الشرق. وإن كانوا عربًا بالأسماء والوطن، وأول ما يتبادر إليهم هو أن يقذفوا العرب بما تحت أيديهم من تهمة "الأمية".. والتهمة الأخرى القريبة منها وهي "الوثنية".. نعني ما فهموه عن المستشرقين من أن العرب وثنيون من الدرجة الثالثة البدائية.. فكانت وثنيتهم تافهة فقيرة.. ليس لها معابد.. ولا كهنة ولا أساطير.. ولا صور وتماثيل!

أما الأمية فهي في حقيقتها تهمة استند مروجوها إلى كلمة "الجاهلية" التي وردت بالقرآن عن عصر ما قبل الإسلام.. وهم في استنادهم إلى كلمة "الجاهلية" فسروها بجهلهم أو بتعمدهم الجهل على أنها الجهل المقابل للعلم، وليس كما هو في لغة القرآن ولغة العرب أن الجهل الذي تعنيه الجاهلية هو "الإسراف" الذي هو ضد الاعتدال، و"الغضب" الذي هو ضد "الحلم" وفي هذا المعنى يقول القرآن في الجاهلية بمعنى الغضب لغير الحق: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:26]

ويقـول عـن الجاهليـة بمعنـى الإسـراف في الزينـة عنـد النسـاء ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:33].

إلا في سياق الحديث عن الكتاب المنزل أو مقرونا به. كما نرجح أن هذا الاصطلاح عن "النبي الأمي" الذي ينزل عليه كتاب بين "الأميين" الذين لم ينـزل عليهم كتـاب، كـان مـن المصـطلحات الـتي تـداولها اليهـود فيمـا بينهم وهـم يتمنـون أن يكـون هـذا الـنبي مـن بينهم، وهـذا الكتـاب إليهم" انتهى.

وأضيف إلى هـذه الحقـائق الـتي نبـه إليها كـل مـن الـدكتور نـاصـر الـدين الأسـد بجامعـة الـدول العربيـة والـدكتور رشـاد محمـد خليـل الأسـتاذ بجامعـة الريـاض أن معـاني كلمـة "الأمـة" كمـا اسـتعملها العـرب ووردت في القرآن تشمل ما يفيد الدين، والشريعة، والطريقة، والقصد. وتشـمل أيضـا معنى الجيل من الناس، أو طليعتهم المهتدية إلى الحق المخالف لسائر الأديان المحرفـة، وهـو معنـى يتفـق ومـا كـان عليـه أبنـاء إسماعيـل الـذين أنتهـت صـفوتهم إلى "قـريش" مـن حفـاظهم علـى "حنيفيـة إبـراهيم" وهـي في معنـى الإسـلام الخـالص دين يخـالفون بـه سـائر الأديـان الكتابيـة والوضـعية الـتي كانت شائعة حولهم..

هذا جزء من المعنى الخاص الذي حملته في تاريخ الدين الإلهي كلمة "الأميين" والجزء الذي يتممه ليظهر معنى الكلمة تاما وجليا هو أن أبناء إسماعيل كانوا يتذاكرون بالضرورة عند إجماعهم في مواسم الحج وعند سعيهم لسكني مكة ليكونوا هم أهل بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل- ذلك الوعد الذي احتفظ به من تراث إسماعيل ووصاياه.. الوعـد الإلهـي بـأن سـيكون فـيهم الرسـول الـذي ينـزل عليـه كتـاب إليهم ليعلمهم ويزكيهم ويجعل منهم في الدين "خير أمة أخرجت للناس" أي خير

أمة آمنت بالله، وصدقت الرسول، واهتدت بالكتاب.. وهو هذا الوعد الذي سجله القرآن الكريم في قصة إبراهيم وإسماعيل ودعائهما لله بعد إقامة البيت "ربنا وأجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم".

بهذا يصبح معنى "الأميين" فيما اختص به ابناء إسماعيل من هذا الوعد الذي تحقق أنهم: الأمة القائمة على حنيفية إبراهيم والتي تنتظر جميلا بعد جيل، رسولا منها إليها، وكتابا من الله يهديها به إلى الدين الحق على ملة أبيها إبراهيم.

ولقد ظل هذا الانتظار طويلا، تدور به الأجيال في شعوب العرب وقبائلها من أبناء إسماعيل أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، وهم يتذكرون الوعد تارة، ويغفلون عنه أخرى، بينما كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون ويتوارثون الوعد، ويطمعون أن يكون الرسول منهم، والكتاب لهم، مع علمهم بأنه لهؤلاء العرب الذي تلقوا الوعد عند بيت الله، والذين لم ينزل إليهم الكتاب، والذين أعدهم الله عبر العصور الطويلة لهذه اللغة المبينة التي يخلد بها كتاب الله إليهم، وتحيا هي بهذا الكتاب الذي يحفظ من التحريف دين الله الحق في الارض.

ولقد علم اليهود بهذا الوعد لأبناء إسماعيل الذين ينتظرونه أمة بعد أمة وهم على شرعة لا يقبلون بها دينا غيرها من الأديان المحيطة بهم، وفي هذا العلم يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:89] ويقول على لسان المسيح ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:6]،

ويقول عن انتظار أهل الكتاب جميعًا له، ويقيهم بتمام الوعد لأبناء إسماعيل مهما طال الانتظار أمة بعد أمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ كَفَرُوا۟ جَآءَهُم﴾

لم يكن العرب إذن "أميين"[1] بمعنى أنهم " لا يقرأون ويكتبون"، وكيف يكونون ذلك وقد كانوا أهدى سبيلا، وأرجح عقلا، ممن كانوا حولهم من الروم والفرس لا يكتبون إلا الأوهام لأنفسهم وعبيدهم، وكيف وقد كانت الكتابة نفسها بهذه الحروف الأبجدية معروفة لهم: بل كانت من اختراع العرب أنفسهم في أكثر من موقع على أرضهم سواء في اليمن أو في سيناء بين النبطين، أو على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض بين الكنعانيين والثابت في التحقيقات التاريخية الحديثة[2] وكتب علماء الآثار أن أسلاف المصريين القدماء من العرب عندما قدموا إلى مصر عبر برزخ السويس قبل الملك مينا حملوا معهم من عناصر حضارتهم الأرقى فن التحنيط والكتابة الهيروغليفية.. لقد كانت الكتابة اختراعا إنسانيا عربيا أضاء به العقل العربي عن طريق ما مر على أرضه الرحيبة المشمسة من دعوات الهداية والعلم والضبط والشمول في رسالة الدين الحق.. وهكذا تعلم اليونان والفرس في طفولة تحضرهم على أيدي العرب المصريين والبابليين هذه الأبجدية التي لا يزال اسمها في اللغات الأوروبية إلى اليوم "ألفابيتا" وهي من ألف باء العربية التي صوروها بحسب حياتهم اليدوية

---

(1) تناول المؤلف هذا الموضوع بشئ أكثر من التفصيل في كتابه "لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب".

(2) اقرأ كتاب "تاريخ مصر حتى الفتح العثماني" للمؤرخين سفيدج والإسكندري، واقرأ كتاب "قصة الجنس البشري" لمؤلفه هندريك فان لون، وفيهما أن العرب جاءوا إلى مصر وأسسوا حضارتها الأولى منذ مينا ومعهم الكتابة واللغة والدين ونظام المجتمع

العملية وعالمية فكانت "الألف" في صورة الإنسان، والباء على صورة البيت، وهكذا عندما تعلم أساتذة المسرح الحر في أول حروف الكتابة سموا الحرف الأول على نهج مثقفيهم من العرب: ألفا Alpha.. تذكارا من آلاف التذكارات التي انتقلت بالعلم العربي والحضارة العربية إلى أوروبا لتضيع في غرورها وشراهتها وعدوانها بغير وفاء..!

لم يكن العرب "أميين" إذن بمعنى الجهل العلمي، أو الجهل بالكتابة، أو الجهل بالدين، ومن هنا يتطرق كلامنا إلى نفي الوثيقة عنهم بمعنى أنهم كانوا أهل دين إلهي عن إبراهيم وإسماعيل، وكانوا وهم حول بيت الله يقومون بشأنه، أو قريبا منه يحجون إليه- لا يمكن أن يكون "الله بصفاته مجهولا منهم.. فالحقيقة أنهم آمنوا بالله الحق في كل عصورهم، أي آمنوا بآله إبراهيم وإسماعيل كما هو فوق كل الآلهة الكاذبة، أو الآلهة البشرية، أو آلهة الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وإن كانوا في بعض غفلات الترف، وطول الأمد، أو فتنة اليهود، أو تحت مهاب الرياح بالوثنية من أرض الروم والفرس- قد تزلفوا ببعض الأسماء الغربية إلى الله.. واتجهوا بالرجاء إلى أسماء تعددت فيها الآراء مثل اللات والعزى ومناة.. أسماء لها أحجار غشيمة في العراء، مثل الرجوم التي يتذكر عندها العرب بعض الأحداث التاريخية.. وأسماء تماثيل يونانية نقلها عمرو بن لحي من الشام ووضعها في الكعبة كما جاء في كتاب "الأصنام" لابن الكلبي.. أسماء نستطيع اليوم أن نكشف القناع عن طبيعتها اليونانية مثل "هبل" الذي هو بالتأكيد "أبولو" آله الشمس عند اليونان، وله معبد في دلفى إلى الشمال الغربي من أثينا، ومعبد في جزيرة ديلوس اليونانية من جزر بحر ايجه، وقد كان في الكعبة على شكلى تمثال لإنسان أوروبي عار من عقيق أحمر قبل أن يتحطم مع غيره من الخرافات "المستوردة"..

وكذلك صنم ذو الشرى وهو أيضا أحد آلهة اليونان وصاحب دور في مسرحيتهم السماوية الخرافية واسمه دوسارس!.

إذن فالعرب "الحنيفيون" على ملة إبراهيم، و "الأميون" الذين كانوا ينتظرون وهم متمسكون بحنيفهم وعد الله لهم بالكتاب والرسول في دعاء إبراهيم وإسماعيل، والذين كانوا ينتظرون هذا الوعد أمة بعد أمة حول بيت الله الذي يصلون له، ويحجون إليه، ويحرمون القتال فيه في الأشهر الحرم كما أمر الله منذ إبراهيم وإسماعيل- لم يكونوا قط "وثنيين" بمفهوم وثنية الفرس الذين لم يعرفوا من الآلهة إلا بشرا في صورة أهورامازدا وأهريمان، ولم يعبدوا إلا "نارًا" لها معابد وطقوس وكهنة، وكانوا تدعيما وتعميدا لهذه الوثنية يعبدون ملوكهم، ويصدقون كهانهم.. ولم يكن العرب وثنين كوثنية براهمة الهند، أو البوذيين في وسط وشرقي آسية، أو كوثنية اليونان الذين صنعوا آلهتهم على هواهم، وفرضوا على هذه الآلهة عبثهم، فأقاموا لها المعابد للتراقيم، والمسارح للهو والعربدة، وهم في كل ذلك ضالوان عابثون، لا يعرفون الاها، ولا يرجون حسابا..

لم يكن العرب الذين يؤمنون بالله، ويستغفرون الله، وينتظرون على حنيفية إبراهيم ووصاياه- كتابا من الله لهم، ورسولا منه إليهم- وثنيين يفسرون الوجود والحياة والإنسان تفسيرًا "وثنيًا" يربط الخلق والحياة ومصير الإنسان بالأرواح الخفية، أو بالعناصر الطبيعية، أو بأسماء بشرية تجسيدية لآلهة مزعومة.. وإلا فأين هذه الأسطورة التي تقول بلغة العرب واملاء كهنتهم أن الذي خلق الخلق هو يعوق أو نسر، وهو آله عربي اسمه شميسان أو قميران.. أو تقول إنه قد اشتركت مع هذه الآلهة آلهة أخرى في الخلق والتدبير مثل اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأن يعرب أو

قحطان أو عدنان من أسلاف العرب هم بالضرورة في هذه الاسطورة من أبناء هذه الآلهة.. كما زعم ذلك اليونان والرومان عن هيلين ومانوا!!

هذه الأسطورة التي هي شرط وثنية العرب المزعومة لا وجود لها..

كما أنه لا وجود لأية معابد لأي صنم من الأصنام المنبوذة في عراء البادية، أو اللائذة كالأماء في سوق النخاسة وعصور الغفلة بظلال الكعبة في بيت الله الحرام.. وليس بيت النار، أو معبد دلفى، أو بيت الأصنام.. وحيث لا وجود للأسطورة ولا للمعابد فلا وجود للكهنة ومراتبهم وطقوسهم..

هذه الأسطورة التي لا غنى عنها حتى اليوم في كل شعب أو مجتمع يغيب عن اسم الحق لا وجود لها في حياة العرب بطولها وعرضها منذ إبراهيم وإسماعيل. لا وجود لها لأن معبودهم بحق هو الله، ولأن تفسير الخلق والحياة والإنسان مستقر في حياة هذه الأمة منذ آدم على أن "الله" هو الخالق للسماوات والأرض. وهو الخالق للإنسان ليبتليه بعمله، وليجز به عن هذا العمل.. ثم لأن التقريب إلى الله بالأصنام العارضة والزائلة، والظاهرة العجز والهوان بغير معابد ولا كهنة ولا أساطير لا يسمى إلا من باب الإتهام الكاذب والتشويش الدعائي "وثنية العرب".. وإنما نسميه كما سماه الله "شركًا" أي إشراك من لا قدرة لهم على شئ مع "الله" في حقوق الدعاء والرجاء وهذا "كفر" بكمال حق الله في العبادة والاستعانة، والكفر كان بمعناه عند العرب غطاء يزول بالصحوة بعد الغفوة، والتذكر بعد النسيان. ولهذا كان اسم القرآن الكريم "ذكرا" وكان النبي بدعوته داعيا إلى هذا التذكر للدين الحق في كماله لله بغير شرك به، أو تقرب إليه بغيره، وفي هذا يقول الله تعالى له "فذكر إنما أنت مذكر".

وأما عن إيمان العرب بالله إيمانا يفسرون به الخلق والحياة ومفهوم الحياة ومفهوم الإنسان تفسيرا يلغي الأسطورة الوثنية والكهانة من جذورها، وينزههم عنها في سلوكهم وغاياتهم وآدابهم وإنما تعبيرهم فذلك ما تكفي فيه شهادة الله لهم في القرآن الذي نزل على رسول الله لتذكيرهم.

يقول الله لمحمد عن علم العرب بأن الله هو خالق هذا الوجود ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]

ويقول في علمهم بأسمائه أيضًا وأن العزة له والعلم له ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الزخرف:9].

ويقول في علمهم بأن خالق الإنسان هو "الله" وليس برهمت أوزيوس أو صنما من أصنامهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:87].

ويقول عن دعائهم لله في الشدائد حيث يتركون الزلفى إلأيه بالاصنام ويسألونه هو ضارعين إليه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[الفرقان: 77]

ويقول أيضا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:33]

التدافع والصرع:

بهذا الدين الحق، مهما غشيته الغواشي بانتظار الصحوة، وبهذه اللغة المبينة التي عاشها العرب منطوقة ومكتوبة، وسجلوها باعمالهم وصدقهم محررة إلى الله ومطهرة- كان العرب على هذه الأرض أول من أطلق الكلمة المضيئة إلى أعظم الأهداف، وأول من حقق بالكلمة هذه

الأهداف الإنسانية الشاملة التي لم تتحقق لغير كلماتهم.. هذه الكلمات المجندة بايقاعها ونظمها وقصدها وبلاغها ومعروفها ودينها لتسير إلى أهدافها كما اختارها الله. فكيف يجيئون اليوم وهم أحوج ما يكونون إلى تصحيح المسيرة، واستحياء اللغة. واستبانة التاريخ. فيبيعوا مدركاتهم ومعتقداتهم وأصالات تراثهم. ولغتهم إلى كلمات الغرب المخمورة، وثقافته وفنونه اللاغية، واللاهية، عندما يتكلم دعائها عن مسرحهم وعبثياتهم وفلسفاتهم؟.

كيف والعرب حين جعلوا لهم نسبا في مجتمع البشر والأمم لم ينتسبوا إلى آلهة مصنوعة كما انتسب اليونان إلى هيلين بن ديو كالتون وبراها الآلهيين عندهم. ولم يزعموا أنهم السادة على النوع البشري كما تعني كلمة "آرى" بالسنسكريتية في زعم الفرس والهند بأنهم "الآريون" ولم يرجعوا إلى نسبة الشمس والسماء كما يدعى اليابانيون في قصتهم الخرافية عن تناسل الآلهة.

لبلدا "إيزاناجي" "وايزانامي" ويكلا إليهم خلق الأرض والبشر.. ذلك أن العرب وهم منذ فجر التاريخ، وفي قلب العالم، منطلق الحضارة الدينية العالمية والعلمية والواقعية والأخروية يعلمون أن الحق الذي لا ينتمي الإنسان المخلوق إلى ما هو أفضل منه- إنما هو بيان باللسان يبدأ به العمل وينتهي إليه.. والبيان إعراب بالكلمة، والكلمة العربية المغربة هي الكلمة الصادقة الدالة على الحق: والمبينة عنه، ولذلك فالإنسان الصادق بالحق هو الإنسان "العربي" المتكلم بالكلمة العربية، والعامل بها، والمؤمن بعلمها. وهكذا كان انتساب العرب في شجرة المجتمع البشري وقيل غيرهم من الشعوب، إلى "الكلمة الصادقة".. لقد سموا أنفسهم "العرب" أي المبينين للكلام، والعاقلين للإدراك، والعاملين بما بان لهم مما أدركوه وعقلوه..

فلم يسموا أنفسهم السادة أو أبناء الآلهة.. ولم يستأثروا وهم أهل السبق إلى هذا الفضل بالبيان والعربية.. بل جعلوا لغيرهم من غير المبينين الذين سموهم "عجما" حتى مشاركتهم في هذه التسمية الأكرم إلى البيان والأعراب والصدق بقدر ما يتعلمون العربية، وما يؤمنون بإيمانها، وما يصدقون الله عملهم بها.. وهكذا كانت رسالة المسلمين العرب بالإسلام إلى كل البشر في الأرض.. كانت رحمة للعالمين.

من أجل هذا الفضل بحقه في الكلمة الصادقة، والكلمة العربية المبينة، تراضي العرب واتفقوا أن يدبروا فيما بينهم سباقًا علميا عمليا لتنمية خصائص الإنسان الأسبق إلى الخير.. الإنسان الأقرب إلى المعروف، والأبعد عم المنكروالإنسان الذي يبلغ أن يكون في حياته التقدمية ندا للدهر، وسيدا للطبيعة، وأخا لأخيه، فيبلغ بذلك أقصى ما يستطيع من تجاوز المدى القياسي في مكارم الأخلاق، والأعمال الجماعية التي تبني وحدة الأمة على دينها ولسانها ومعروفها الذي لا بديل له.

على طريق هذا السباق عرف الإنسان العربي المؤمن "التدافع" بين شعوبه وقبائله بدلا من الصراع". فالتدافع الذي قد يبلغ مبلغ الحرب و تناقس على الفضل والمعروف، ودفاع عنه، وتسابق فيه، وردع لمن يتخاه.. وأما الصراع فهو وليد التناقض في المصالح، والتناقض في تفسير شكل المجتمع على الأساس الطبقي. وثماره هي الحروب المتعددة الأسلحة، والتي تستهدف العدوان على المبادئ والحقوق، والتي يكون هدف أحد الأطراف فيها إبادة الطرف الآخر.. ومحو مبادئه ونظمه، ليستبدل بها غيرها نظمًا أخرى ظالمة.

التدافع إذن بالسلم أو الحرب، مع الأقسام بالبقيا والرحمة وليس الإبادة والتمثيل كان بديل "الصراع" التقدم حباة العرب، وتنمية ذاتهم

ولغتهم. منذ أن زال مفهوم الصراع في أنفسهم وتراثهم بالإيمان، ومنذ أن نظروا إلى الخلافات الجذرية بينهم وبين جيرانهم من الفرس والروم نظرة علمية إنسانية لا تضيق بخلافات البشر، المختلفين بالضرورة، ما لم يقع عدوان على حق لا يحتمل الصبر عليه أو التجاوز عنه.. وهكذا عاش العرب يدافعون جيرانهم الأقوياء بقوة الحق الظاهر إلى أن جاء الإسلام فدفعوهم بوحدة الإيمان عن أرضهم، ودونما حقد أو استعلاء أو انتقام منهم.. وهكذا عاش العرب بينهم وبين أنفسهم يتدافعون حول الدين والمعروف والفضل كما استقرت القواعد في حياتهم وحياة آبائهم، فكانت حروبهم كلها للدفاع عن مبادئ المعروف، ونصرة الجار والضعيف، ومساندة أصحاب الحق، ورد الحقوق إلأيهم، وتأديب من تبطرهم كثرة العدد أو الأموال فيستكبرون ويفسدون.. فكانت من ذلك حرب البسوس غيرة على حق الجار، وإباء لأي شكل من أشكال البغي والتسلط فيما جرى من معارك التقويم على السواسية بين الناس بين بكر وتغلب، تلك الحرب التي استمرت أربعين عامًا كانت كلها دروسًا للأمم التي تتصاغر لطغاتها حتى تفقد أخص الخصائص في حرياتها الشخصية والعامة، ومن ثم تستكين لتراكمات العبودية ومضاعفاتها حتى تنسى طعم الحرية وإن بقى لها لفظها.. وطقوسها.. والأحزاب التي تتاجر بالبحث عنها!

بهذا التدافع الطويل، والسباق به إلى المكارم العملية، حيث تتمكن الخصائص العربية وتزدهر، وحيث تتدفق بها المعاني الكريمة في الألسنة، وتتحدد بها المعالم على الطرق- ظهر الإسلام بين هؤلاء "الأميين" الموعودين بالكتاب وبالرسول، وظهر الرسول "الأمي" المصطفى باختيار الله من أبناء إسماعيل: ومن قريش، ومن بني هاشم، خلال نحو خمسة وعشرين قرنا كانت فيها العروبة والعربية بمعنى اللسان المبين تعني

الخصائص الكريمة المبنية وهي تتحدر في سباقها بين الأصلاب والترائب، أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، ولم تكن بمعنى محض "العرق" كما عاش هذا المعاش في مفهوم بني إسرائيل: فكان ظهور الرسول: ونزول الكتاب. وانتصار الإسلام هو جائزة هذا الاصطفاء الطويل المنى وقومه.. الاصطفاء الذي أكده النبي عن نفسه في قوله "أنا خيار من خيار" وأكد قانونه في قوله "تخيروا لتطفكم فإن العرق دساس".. وهو الاصطفاء الذي أكده الله باختيار العرب ليكونوا أمة الدعوة التس استجابت المنى في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وكما أكد القرآن قانونه الثابت في قوله تعالى ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ وفي قوله ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

بهذا القانون الحاكم على وحدة الأخلاق. وانتخاب الخصائص قبل الإسلام وبعده أصبح أفراد الأمة العربية الواحدة: المتجدده بشعوبها وقبائلها في مسار السنن الطبيعية حولها.. والعلمية في نموها، أخلاقها حية، وكلمات واعية، هادفة بالتجانس إلى هدف واحد له أمام أعينها وضوح الشمس، وهي تتحرك إليه بقوة جماعية لها حكم القانون، وشرعية العلم، ومضاء الإرادة، فكيف يراد. وكيف يمكن أن تنشغل هذه الأمة في صحوتها المعاصرة باللهو واللعب والتخييل منصرفة بذلك عن أصالتها، وعن عناصر انتصارها، وعن سباقها المستديم فوق أرضها الرحيبة المشمسة التي قارعت عليها الدهر فانتصرت عليه وكانت ببقائها إلى اليوم ندًا له، ماضية بهذا السباق إلى هدفها الواضح.. كيف يمكن أن تنسى مع ارتفاع أصوات بعض المتادبين من أبنائها من دعاة الثقافة اليونانية- الشرقية

والغربية- هذا الهدف لإنساني التقدمي والعلمي الواضح في تاريخها الطويل، كأنها أمة حديثة الولادة، جاهلة مما تريد، غافلة عما يجرى، عاجزة عما تعمل..؟!

المجتمع الفاضل:

على هذه الصحراء الواسعة، وفي حياة الرعى المترحلة، مع تجارة القوافل فوق تلك الطرق البرية والبحرية التي تمتد من قلب العالم إلى أطرافه، وحول بيت الله الأول في هذه الأرض، حيث ترتبط الأقوال والأعمال بالدين والمعروف، وتقوم العهود والمواثيق، ويجرى العدل والقضاء باسم الله الواحد، الذي لم يتجسد في تمثال، ولم يظهر في صورة، ولم يختلط به في ذاته غيره، بل هو الفرد الصمد، الأعلى والمتعال، رغم الشركاء الذين يظهرون كالكدر ثم يذوبون بنزول المطر- على هذه الصحراء الواسعة التي لم تفقد إلى اليوم بدائها وبهاءها برغم السيارات والطائرات والرفاهية والمدن قام ذلك المجتمع الفاضل، مجتمع السواسية والمعروف، مجتمع عبادة الله وسلام النفس، وإيثار الأخوة، وسيادة بالحياة.. قام طويلا قبل أن يحاول أفلاطون أن يسقط أخلاط عقله الطبقي الوثني على مجموعة من الأطلال والخرائب التي تصورها فلسفيا ويونانيا وهو يرسم "مدينته الفاضلة".. وقبل توماس مور وسان سيمون وكارل ماركس في تصورهم بين الظلام والجليد، وتحت القهر والاستغلال- مجتمعات فاضلة، أو أفضل لشعوبهم من ديمقراطية اليونان..!

قام هذ المجتمع الفاضل على أرض العرب منذ فجر التاريخ على محور حياة الرعى وحياة التجارة، وهي الحياة التي قوامها الحركة الأفقية مع الطبيعة وعناصرها في الأرض والسماء، حوارًا معها، وتملكا لمنافعها.. ثم الحرمة العمودية مع الله خالق الإنسان والطبيعة بين السماء والأرض، من

حصيلة ما يجتمعون من رزقه، وما يتعلمون من علمه، وما ينطقون ببيان لسانهم إليه، مجددين العهد معه كل عام- شكرا وذكرا. حول نقطة مركزية يحتشدون من أطراف بدائهم حولها، ويتعارفون على دينهم ولسانهم ومعروفهم عندها، وهي الكعبة والمسجد الحرام في مكة التي هي الإيجاز للأسم العربي القديم "مكوراب" أي مكان بيت الرب..

حول بيت الشَّعر المترحل إذن بكل ما يعنيه من حصيلة السعي والعلم، وقوة الإرادة وانتصار النفس، وحول بيت الله المستقر آلاف السنين في موضعه من جبال الحجاز بواد "غير ذي زرع" بكل ما تهيأ له- بعيدا عن الملوك والكهنة- من معنى المرجع إلى الله، والمثابة إليه، والأمن في حرمه الذي حرمه أهله، وحرمه البادون عنه، بأمر الله، وحتى تذوب خصوماتهم وثاراتهم ونزواتهم بين يدي الله- جول مركزي الحركة والقرار.. حول الأفقي مع بيت السعي المترحل والمتخفف، والعمودي عند بيت الله المستقر والجامع.. قام هذا المجتمع العربي العف بالمعروف، والقادر بالحرية، والآمن بالإيمان.. قام هذا "المجتمع الفاضل" بمفهوم التجدد والتعاقب بين الغفلة والذكر، حتى ظهر الإسلام في صورة الرسالة الخاتمة، المتضمنة للكتاب الخالد، وكان ظهوره بمناصرة هذه القبائل التي آمنت به بعد أن تعاقبت عليها حياة الآباء بالإيمان والمعروف أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل تنتظر الرسول والكتاب- هو الآية العظمى لهم ولجميع الشعوب، في جميع عصور التاريخ، وهو الآية التي لا تزال في صورة الأعمال والتطبيقات التي تركها عصر الرسول والخلفاء الراشدين تفسيرا عمليا للقرآن- أعظم الحقائق الملزمة للعرب في حاضرهم ومستقبلهم، الزاما يحملون به الأمانة المباشرة عن أنفسهم، والأمانة بالقدوة عن الشعوب المجاورة لهم..

وبالتأكيد فإن أول ظواهر الإلزام والإلتزام في أمانة كل عربي أن لا يتخلى عن مقومات وجوده في الدين القويم، واللغة المبينة، والتاريخ الذي عاشه بالسلام النفسي والسلام الاجتماعي، أي أن عليه أن لا يضل فيبدأ اليوم من حيث بدأت وانتهت وانقرضت تلك الشعوب الأوربية الصغيرة التي طرأت على التاريخ، وانقرضت بانقراض عقائدها، وتآكل أخلاقها، مثل اليونان والرومان.. هذه البداية التي ينفخون بها للعرب منذ الحملة الفرنسية في البوق اليوناني لتستنفرهم- في لحظات الصحو الجديد- إلى فنون المسرح والرواية الخيالية التي نشأت مع الأطوال الأوروبية من ذات المصادر الوثنية، والمفاهيم الصراعية والعدوانية التي نشأت وانقرضت بها قبائل اليونان الأوائل! إن هؤلاء النافخين في نفير ديونيسيوس الهندي اليوناني البدائي من تجار الكلام، ودعاة الغرب، والذين سلفا قد استهانوا بهويتهم وأصالتهم ففكوا حزامهم العربي، وتعوجوا بألسنتهم وأفكارهم، وتجردوا بالإلحاد الشرقي أو الغربي من سلطان الحق على قلوبهم وعقولهم إنما يحاربون سنن التاريخ، وقوانين الله في الطبيعة، أو قوانين البيعة التي تتأكد لهم في علوم الإنسان كما بدأ الأوروبيون حديثًا فقط في الاهتمام بها.. هذه السنن والقوانين التي تجعل من الضوء والظلمة في مناخ واجواء الشعوب، ومن الحر والبرد، ومن السعة والضيق، ومن الوضوح والعتام، ومن الإبانة والعجمة حافظًا لخصائص البشر كما استخلصوها من حركتهم وسط الطبيعة، أو من استقرارهم تحتها.. وهكذا فإن خصائص العرب وهي تتردد بين الفتور والنشاط باقية لهم.. هذه الخصائص التي جمعتهم فوق أرضهم المبسوطة الآفاق بالحرارة والضوء، والمتواصلة بالتدافع والتماثل، والحية بتنوع الموارد والأسباب، والواعية للذات بتميزها في قلب العالم عمن حولها، وعما حولها.. هذه الخصائص التي جمعتهم فوق أرضهم على الدين الحق.. الدين الآلهي.. ستظل مالم تتغير الأرض، أو تتبدل

السماء: هي خصائصهم التي تأبى لهم ولا تعقل أن ينجح الأعمى في أن يخدع المبصر ليغلق عينيه، أو أن يتقبل الناطق المبين منهج الأبكم الأصم فيتكلم بيديه.. أو أن يلقي المؤمن بسلام قلبه ونفسه- افتعالا وسفها- إلى مثل ما ينهمش قلب الوثني القديم والملحد المعاضر من مخالب الصراع وأنيابه، لكي يستمتع على صراخ أفكاره، وتحيب مشاعره، أو داخل عمايات نفسه، بأحداث متصارعة على المسرح، أو متنازعة بالإختراع والتوهم داخل رواية طويلة أو قصة قصيرة..!

بهذه الحقائق التي تبني سلام المجتمع المتقدم سيبقى الإنسان العربي في تسلسل لا انقطاع له بين آبائه وأسلافه هو بالحرية والإيمان والبيان بطل واقعه. البطل الذي مهما كان أثره في مجتمعه صغيرا أو كبيرا فهو بهذا الأثر حق لا وهم، وصدق لا اختلاق، وجد وقدر في مشيئة الله وفضله وحكمته باتساع آفاق الحياة والواقع والتاريخ، وليس لهوا ولعبا، وعبثا في "أدوار" يلفقها عن نفسه، أو يلفقها عنه غيره، تدور بها تجارة الكلمات، أو سوق الموبقات، ومتاحة الروايات الخيالية والمسرحيات!

على أن هذا الكلام الوصفي لمجتمع العرب الفاضل كما حققوه أطوارًا متعاقبة في إطار الصدق في التعبير قولا وعملا- عن واقعهم ودينهم وعلاقاتهم- ليس نثرا فنيا تصوغه العاطفة القومية، والعاطفة الدينية، مجردا من البناء العلمي والبرهان العقلي، والسند التاريخي.. إنه ليس كلاما خطابيا يقال في جانب هذا الصدق التعبيري في آداب وأشعار العرب ضد الوهم والتخييل والالتباس المسرحي عند اليونان- من غير حجة أو دليل.. فالدليل أقدمه في الفصل القادم من واقع القوانين التي تحكم بطبيعتها نظام اللغة العربية في تركيبها الحي المميز لها، والذي أصبحت به دون غيرها من اللغات هي لغة الدين، والصدق البياني والعلمي، ولغة

مجتمع الحرية والمساواة والسلم الإنساني.. كما أقدمه في الفصل الذي يليه من هذه الدلالات الحضارية التي يقدمها الشعر الجاهلي قبل الإسلام على قيام حياة الدين والصدق، والحرية والمساواة، حقبة بعد أخرى، في ذلك المجتمع الفاضل الذي أقامه العرب على الحرية والصدق والدين، وهم يتجهون بالنمو التعبيري والفنساني نحو عصر ظهور الإسلام.. الذي تغيرت به وعلى صورته صورة المجتمع الإنساني تغييرا جذريا وإلى مدى طويل.. محو الأصدق والأفضل.

الفصل الثاني

الوجود بالإيمان والصدق والمساواة في تركيب اللغة العربية

الوجود بالفعل:

عندما شك رينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي في القرن السابع عشر كان شكه المنهجي تعريه للفلسفة الأوربية منذ سقراط وما قبله من كل أصالة أو ثبات. لقد أراد منذ البداية أن يتحرر من كل خداع تجلبه له الحواس في صور معلومات خاطئة، وكانت البداية الوحيدة التي استقر عليها تلمسه للصدق في نفسه، والصدق المحيط به، هي الشك في وجوده الذي يقاومه الشك في هذا الشك. الشك إذن كان البداية.. ومن هذا الشك الذي سقطت به كل الصروح من حوله بدأ يتبين أن الشك عملية تفكير، إذن فقد تحقق له الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه هو برهان وجوده، فهو يفكر.. إذن فهو موجود ..!

بهذه الصورة التي أزاح بها ديكارت كل الفلسفات السابقة، وكشف بها في تعريف الوجود بالتفكير عن الانفصام المأساوي بين الإنسان الأوربي ووجوده المحيط به، وأكد في انطلاقه من إثبات الوجود لنفسه بالتفكير أن أقصى ما يستطيع أن يفعله هو نفس ما فعله من قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن بعدهم إلى اليوم، أي أن يفكر في الوجود من نقطة خارج الوجود، وليس من نقطة هي في واقعه وفعله وإيمانه داخل هذا الوجود، وفعالة في هذا الوجود، وغير متناقضة مع هذا الوجود!.

من هذه النقطة يختلف الإنسان العربي عن الإنسان الأوربي منذ عاش الأول متحركًا وسط الطبيعة المضيئة ينقل إيقاع حركته متوازنًا بانتصار وجوده مع إيقاع حركتها، وهو يعلم – كما تبين له من ارتفاع نظره رأسيًا في السماء إلى أعلى سماء، وامتداد بصره أفقيًا إلى أبعد أفق - أن الله الذي خلق هذا الوجود قد خلق فيه الإنسان ميسرًا للإيمان به، وللعلم

بسنته، وللعمل في موارد هذا الوجود بدين السماء والأرض – كما سخرها له، ليمتحنه بعمله، وليعده – إذا لم يشك ولم ينكص- لحياة أفضل من حياته.. بعد حياته.

فالإنسان العربي إذن وقد آمن بأنه مخلوق داخل هذا الوجود، المخلوق مثله، وله، لم يشك لحظة بقوة هذا الإيمان في وجوده.. إنه موجود بالفعل، وقد صنع لغته وهو يتلقاها لتؤكد وجوده بنفسه بغير دلالة فعل الوجود.. أي فعل الكينونة الذي اختصت به جميع اللغات الأوربية، واللغات الآرية في آسية وتحررت منه اللغة العربية لهجاتها وحدها.

الإنسان العربي بشهادة لغته في عقيدتها الصوتية موجود بالفعل.. إنه "موجود" .. إذن يتفكر وينطق ويعمل.. إنه موجود بالفعل لأن إيمانه بالخالق أثبت وجوده بالخلق، ومد فكره مع الوجود وبالوجود ليقول ما يفعل، وليفعل ما يقول..

إن الإنسان العربي منذ اهتدى، واستوعب بحركته الحرة وسط آيات السماوات والأرض – لغته المبينة، ومنذ تلقاها على صورة نفسه، وتعبير وجوده، وشهادة واقعة، ودلالة إيمانه، لم يكن محتاجًا قط لكي يقول كما قال اليونان والرومان بالأمس، وكما يقول الإنجليز والألمان والفرنسيون والإيطاليون اليوم "أنا أكون" .. إن كلمة "أنا.." في لغة هذا الإنسان العربي تعني أنه كائن فعلا.. تعني أنه كائن فعلًا.. تعني أنه موجود ليفكر ويختار، وليقول ويعمل.. بينما الإنسان الأوروبي منذ جذوره اليونانية والرومانية، ومع انقراض اللغتين، لا يزال وهو يجدد لغته يعبر عن شعوره الملازم له.. شعوره بأنه موجود داخل نفسه لكي "يكون" في هذا الوجود المحيط به كلما أراد.. وهذا الجدار العازل بين نفس الإنسان الأوروبي وبين الواقع الصقيعي المعتم المحيط به.. هو صانع البؤرة التي تتخلق فيها أفكار

الصراع الدرامي في خياله المعزول في نفسه، رغم أنه الإنسان الذي اكتشف الكثير من قوانين المادة، ولكنه لم يستطع بعد أن يكتشف دلالة هذه القوانين على الله..

في اللغة العربية تعبر الأسماء والضمائر مجردة عن أفعال الكينونة عن وجود ذاتي لأصحابها، ولهذا تتميز اللغة العربية بوجود الجملة كاملة المعنى من غير فعل يؤكد وجود وكينونة الفاعل، كما أنه في مقابل ذلك يمكن أن توجد جملة فعلية كاملة المعنى يعني فيها الفعل وحده عن اسم الفاعل، أو يغني الحرف الدال عليه، وبهذا تؤكد اللغة العربية في تركيبها أن الإنسان موجود بالفعل. كما انه بهذا يتحقق أن الإنسان هو الفعل، وأن الاسم أو الفعل أحدهما كاف وحده للدلالة على الوجود بالفعل، لهذا الإنسان الحاضر بكمال عقيدته ولغته ومسئوليته في هذا الوجود.

في الجدول الآتي نقدم أفعال الكينونة الحتمية في اللغات الأوربية القديمة والحديثة للدلالة على الوجود المشكوك فيه عند الأوربي إلا بهذا الفعل اللازم له في كل جمل تخلو من الفعل الذي يحل محله في الدلالة على الوجود.

أفعال الكينونة في اللغتين اليونانية واللاتينية المنقرضتين، ثم في اليونانية والإيطالية المعاصرة:

ضمير المتكلم	باليونانية القديمة	باليونانية المعاصرة	باللاتينية المنقرضة	بالإيطالية المعاصرة
أنا أكون	Egho imy	Egio ime	Ego sum	Io sono

أفعال الكينونة في اللغات الأوربية المعاصرة واللغة الفارسية:

ضمير المتكلم	في الإنجليزية	في الفرنسية	في الألمانية	في الفارسية
أنا أكون أنا رجل أكون	I am	Je suis	Leh bim	من مرد "هستم"

هكذا يتقرر في أول قوانين اللغة العربية التي تحدد علاقة الأسماء بالأفعال على أساس الوجود بالفعل – أن هذا الوجود المتحقق يعني الفعل، وأنه وجود متحقق أساسًا بالإيمان بالخالق والموجد، وأن معادلة ديكارت الشكية تنقل من "أنا أفكر فأنا موجود" لتكون في صورتها العربية بكمال الوجود واليقين بالخلق "أنا موجود فأنا أفكر وأقول وأعمل" .. وهكذا يسقط ويتلاشى عالم الدراما الوهمي في حياة الإنسان العربي، وينفتح الطريق فوق أخدود "انفصام الوجودي" في نفس الإنسان الأوروبي فيحمل الإنسان العربي عبء مقارعة الدهر، ومسابقة الزمن، حتى يفي بحياته بما عليه، كما عقل ذلك في كل ما حوله، وكما آمن به..

الفاعلية والإعراب:

ولما كان من المحقق أن هذه اللغة العربية هي بكلماتها ومعانيها مستخلصات وملخصات الطبيعة الحية في ألسنة العرب ومدركاتهم، ولما كانت هذه اللغة هي عند العرب برهان وجودهم الفعال فتسموا بها "عربًا" وأصبحت في دلالتها على "الحق" في الوجود المحيط بهم برهانًا لهم على كل حق، كما جعلها الله كذلك عندما أنزل بها القرآن، وعندما جعلها في

قسمة على صدق ما دعاهم إليه مثالًا لهذا الصدق في قوله تعالى "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما إنكم تنطقون".. فقد كان طبيعيًا أن تتميز اللغة العربية بقوانين حياتها وبيانها في ألسنة أهلها الناطقين بها، ومن ذلك قانون "الإعراب" الذي تتغير حركات أواخر الكلمات وهي "الضمة والكسرة والفتحة".. وفقًا لنظام دقيق يخضع لدرجة "الفعالية" في الكلمة، وهي درجة يفطن إليها المتكلم بشعوره وفطرته فهو ينطق بالصواب – قبل وضع قواعد النحو – كما لو كان يعزف كل كلامه على مشهد من الطبيعة وتوافقيًا معها.

هذا القانون الذي صنعته الفطرة في لغة وأصوات الإنسان العربي وفقاً لمدركاته التي استخلصها من الطبيعة الحية في جواره الطويل معها آلاف السنين، وهو قانون" الإعراب والفعالية" لم يستطع النحاة من العرب الذين بدأوا من أجل الحفاظ على القرآن الكريم في تقنين فطرة اللسان العربي، أي في محاولة الكشف عما وراء بيان اللغة العربية في الإعراب من قواعد يربطها قانون – لم يفطن النحاة العرب من أول أبو الأسود الدولي ثم الخليل ابن أحمد الفراهيدي ثم أبو عمرو بن العلاء إلى تسجيله والإشارة إليه كمؤثر أصيل في اختلاف المواقفي، كما أنه كان من الطبيعي أن يغرق من جاء بعدهم من العلماء الفرس المتعربين من أمثال سيبويه والكسائي وتلامذتهما في شتات الفهم، وإبهام الرؤية، وهم يدورون بالقوالب الجامدة والغامضة، والخلافات الفرعية اللفظية، حول الأسس الأولى التي وضعها أبو الأسود والخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء..

ومن الغريب أن تجيء صحوة العرب في هذا العصر بأفكار أكثر تحررًا من القيد الأعجمي في فهم النحو العربي، وأكثر اقترابًا إلى الكشف عن هذا القانون الطبيعي الذي حكم قواعد الإعراب في اللغة

العربية على أساس من تدرج "الفعالية"، أي على أساس من اقتران حركات الضم والكسر والفتح في آخر الكلمة بالدلالة على درجة هذه الكلمة من قوة "الفعل" في المعنى الذي تعبر عنه كل جملة بذاتها..

لقد ظهر من علماء اللغة العربية ومحبيها – رغم تكاثر أعدائها والنشطين في مشروعات هدمها – من أدركوا أن بيان اللغة العربية ليس في معاني كلماتها وحدها، وإنما هو البيان الصوتي، الذي يمثله القرآن الكريم في أعلى مراتبه. ومن ذلك فإن حركة الضم مثلًا والتي تحصل من تدافع الصوت والضغط به للدلالة على الإرادة والاستمرار هي التي تهيئ أذن السامع وذهنه للمشاركة في تصور التوافق بين رفع "الفاعل" وبين أنه هو الذي قام بالفعل، وتركزت فيه ذروة الفعالية في المعنى، وكذلك في ضم المضارع الذي يشير فيه الصوت الضاغط إلى حقيقة ما يعنيه الفعل المضارع من الثبات والاستمرار..

وأنقل من الكتاب الذي سيصدر قريبًا إن شاء الله للصديق العالم محمد الكسار – دمشق- بعنوان "المفتاح لتعريب النحو" بعض كلمات له في هذا المجال الذي يساعد على فهم القوانين التي تحكم اللغة العربية، وفي مقدمّها قانون "الفعالية" الموجه لحركات الإعراب.

يقول محمد الكسار : "ما من شك في أنه قد تم لتلك الأجيال من العرب الرعاة إخضاع لسانهم لضوابط دقيقة اهتدوا إليها بحسهم السليم، وذوقهم المرهف، نتيجة لكشفهم مما حولهم سر الحركة وقوانينها، وانعكاس هذا الوعي لقوانين الحركة في لغتهم ومفرداتها، وقد اعتمدوا في ذلك على حركات ثلاث هي التي سماها النحاة تقليداً للخليل بن أحمد "الضمة والكسرة والفتحة" وسموا انقطاعها "الوقف" أو السكون وتبعًا لاختلاف مخارج تلك الحركات، واختلاف الجهد الفعلي اللازم للنطق بها

فقد صنفوها إلى حركة قوية هي "الضمة" وحركة متوسطة القوة هي "الكسرة" وحركة ضعيفة هي "الفتحة"، ولم يروا في السكون أكثر من انعدام الحركة أو وقفها، ومع ذلك فهذا الوقف عن الحركة- مثل الصفر في الحساب – له نشاطه في تهيئته ذهن السامع لما يراد من معنى السكون ودلالاته المتنوعة".

ثم يقول محمد الكسار وهو يرجع بنشأة اللغة إلى حياة البدوي المترحل في بدائه، موجودًا بالفعل، وموجودًا بالخلق، ويكشف عن الصورة الحسية المادية المتحركة في حياة البداوة والوعي والتجارة على طرق الصحراء، والتي تخذ منها الإنسان العربي أساسًا لبناء جملته الحية: "إن الإنسان العربي قد بني جملته التي صاغها من كلامه على نفس النسق الذي بني به بيته الذي يسكنه، والذي صنعه من أشعار الأنعام وأصوافها وأوبارها. ففي كل من هذا البيت المتحرك، والجملة التي يتكلم بها "عماد" لا يقوم أحدهما إلا به، عماد رفع به العربي سقف خيمته أو بيته رفعًا حسيًا، كما رفع به معنى جملته رفعًا معنويًا، وكما استعان في البيت والجملة بروافع وضوابط أقل أهمية من "العماد " في مثل حركات الكسر والفتح والسكون.."

إن معنى هذا أن اللغة العربية تحمل من قوانين المجتمع الفاضل، مجتمع السواسية، هذا القانون الذي لم تستطع جميع الاشتراكيات بأنواعها في أوروبا أن نقيمه في أي عصر وحتى اليوم، وهو القانون الذي تقيم به الإعراب وتوزيع الحركات على أساس أن "لكل كلمة من حركة الإعراب بحسب جهدها وفعاليتها في إظهار المعنى".. وهذا هو القانون الذي طبقه الإسلام في ربط الثواب بالعمل والجهد فيه، والإيمان الموجه له..

وهنا نتساءل وتسأل الدعاة والمروجين للقصة الخيالية والمسرحية فنقول إذا كان هذا هو مدى الالتزام بالعدل البياني في توزيع حركات الإعراب في لغة العرب المؤمنين حتى يقع التوافق بين الجهد الصوتي وبين درجة الفعالية أو الجهد المادي في طبيعة المعنى المراد التعبير عنه – فكيف يمكن وهذه هي موازينهم بالعدل والصدق لدلالات كلماتهم على ما فيها من الجهد بدلالة الصوت – أن يقبلوا هدم السنن التي تحكم الإنسان وتحكم الطبيعة من طريق ابتداع خيالي لأحداث لم تقع ولا يمكن أن تقع، وهي لا تقع في الروايات أو على المسرح إلا تناقضًا مع السنن والقوانين الصحيحة للحياة من خلال أقنعة الوثنية على عقول ومشاعر الرواة والشعراء الأوربيين، وتحت تأثير مرض الفصام بين وجود هذا الإنسان الأوروبي في نفسه ووجوده في وجوده، وبسبب ما ترتب على ذلك من مرض "الصراع" الذي تتخلق فيه ضد الطبيعة وضد الحياة وضد الإنسان أشباح وعقد وانقلابات الدراما في جميع أطوارها الوهمية !؟

من أجل هذا أصبحت الأخطاء والخطايا في تاريخ الدول الأوروبية، وفي حياة كل يوم بين شعوبها لا تكاد مهما تعاظمت إلى حد العدوان بالاستغلال والاستعمار، وإلى هوة الانحراف بالخمر والابتذال – تثير انزعاجًا بينهم أو تبرمًا، ما لم تتعلق هذه الأخطاء بمقادير الطعام والتملك والرفاهية.. بينما لا يكاد يتحمل العربي أن يقع مجرد اللحن في لغته.. إنه يحسن ويؤمن أن إنسانيته وعبقريته وكماله في لغته التي تدور متزنة ومتسقة بأنغامها في نفسه، لتعطيه نفس الإحساس الذي تعطيه له الطبيعة وهي تدور بأفلاكها وسننها ونواميسها في وجوده.. وبهذا فهو كذلك كان لا يحتمل بل يقاوم أي انكسار لقوانين العدل والتواصل والمقاسمة في مجتمعه السليم..

وكذلك فإن العربي يعلم بفطرته أن اللحن خطيئة مثل الكفر والظلم، وإخسار المكيال والميزان.. وهو يحس بقطرته إحساسًا قويًا بغير قواعد مكتوبة بهذا الملكوت الصوتي الذي يعيش به في لغته داخل وحدة مع وجوده المادي.. وحدة مع الملكوت المشهود المحيط به، يتجدد إحساسه بها كلما تكلم ومار قانون "الفعالية" في هذه اللغة التي نزل بها القرآن، والتي أضاءت بها شريعته وهي تؤكد الصدق في الإيمان، والأمانة في الفعل، وتنادي بأنه : "ليس للإنسان إلى ما سعى، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى"..

في البيان والتبيين للجاحظ أن ابن ضحيان الأزدي من أشراف الأزد كان يلحن فيقرأ "قل يأيها الكافرون" فيقول " قل يا أيها الكافرين" فلما سألوه قال " قد عرفت القراءة الصحيحة في ذلك ولكني لا أجل أمر الكفرة!".. واضح أنه يقصد مباشرة إلى قانون "الفعالية" الذي لم تخطئه فطرته وإن لم يتحدث عنه.. فهو في لحنه الذي تعمده أراد أن يقول إن كلمة "الكافرون" الصحيحة تعطي بمفهوم الفعالية في الرفع قوة الفعل، ومعنى المسئولية والثبات، وهي صفات لا يستحقها الكفرة الذين لا يحترمهم فقال: "الكافرين " بالجر.. لأنهم لا يستحقون الرفع!!

الكلام والفعل :

ومن ظواهر قانون الفعالية في اللغة الغربية أيضًا أن يقترب القول من الفعل حتى يوشكا أن يتحدا معًا ، فالقول فعل وشيك، والفعل قول تجسد..

إن كلمة "الحديث" بمعنى الكلام تحمل في نفس الوقت دلالة "الحدث" الذي يدور عنه الحديث. فالحديث والحدث يرجعان إلى فعل ثلاثي واحد. وعندما نتبين أن "الحدوث" هو ضد القدم نكتشف أن الحدث

أي الفعل هو وقوع "الحدوث" أي البدايات لأخبار جديدة يدور حولها "الحديث".. وهكذا يظهر معنى الاتحاد بين القول والفعل في قانون الفعالية في اللغة العربية بقدر ما نجد هذا الاقتراب الشديد بين حدوث الفعل والتحدث عنه.. أو بين الحدث والحديث، والقرآن يجمع معنى الفعل والقول والحداثة في مادة "حدث" في قوله تعالى " أو يحدث بعد ذلك أمرا".. أي يبدأ بأمر جديد هو "فعل" يكون به خبر جديد، وحديث جديد..

ولا تزال بعض القبائل العربية في سيناء كما سمعت من أهلها تستعمل كلمة "قال" بنفس معنى " فعل" للدلالة على الحركة.. فالبدوي أحيانًا يتحدث عن رجل ليصف غضبه لسماع خبر، أو مهارته في أداء عمل فيقول "وقال بيده هكذا ثم قال بيده هكذا "وهو يعني أنه فعل بيده هكذا وهكذا.. لأن اليد لا تقول ولكنها تفعل.. وهنا يتبين الإحساس بأن القول – كما ذكرنا – فعل وشيك، وأن الفعل قول متجسد.. وأن فعل الأيدي هو كلامها وقولها.. والشاعر العربي معبد بن علقمة يقول في مثل هذا المعنى قبل الإسلام:

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

ويقول المتلمس:

وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

أي أن الحديث هو عن فعل يقع ويشهده الناس، والعاجزون عن الفعل هم المقهورون الذين لا فعل لهم.. ولا حديث عنهم!

كذلك جاء القرآن الكريم في حكمة بيانه الإلهي بهذا اللسان العربي دلالة على وحدة الكلام والفعل، فكانت "الكلمة" تأتي في بعض الآيات بمعنى "الفعل" سواء فعل الله المقصود به النصر في مثل قوله تعالى "

وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكماته وهو السميع العليم" في خطابه للنبي عليه الصلاة والسلام، أو فعل العقاب في مثل قوله تعالى "قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين"..

وكذلك تأتي " الكلمة" في القرآن الكريم بمعنى الخلق المتجسد في آية وهو فعل كامل من الله، كما كانت آيته بخلق المسيح من غير أب وذلك في قوله "إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته..." أي آيته المخلوقة بفعل قدرته تعالى.

وكذلك تأتي الكلمة مجموعة في "كلمات" دالة على أفعال الله وآياته التي لا تحد في خلقه وحكمته ورحمته. وذلك في مثل قوله تعالى " قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادًا" فهذه الكلمات التي لا تحد هي فعله الدائم، وآياته التي لا تنتهي، والتي بها يحق الحق، وينصر الرسل، وذلك في مثل قوله تعالى "ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ولو كره الكافرون"..

اللغة الدينية

وسط هذا البرهان الإيقاعي المتحرك بالدلالة المتجددة على الله، في الطبيعة المتكاملة بوحدة السماء والأرض، واتساعهما المضيء والفريد نشأت لغة العرب مهتدية حول عمودها وصدقها وهو الإيمان، عبر فعل ناجز، متلاحق تلاحق النهار والليل، أو فعل وشيك.. وهكذا كانت بكمالها وصدقها هي اللغة الدينية فوق هذه الأرض بمعنى الدين الحق ودلالاته.. كما ملكت بهذا الكمال والصدق أن تعيش وتظهر وتبقى في هذا الوجود البشري "بغير طفولة ولا شيخوخة تعتريها" كما يقول رينان "منذ ظهرت على الملأ وحققت انتصاراتها التي لا مثيل لها"..

وحول هذه الحقيقة التي نطق بها التاريخ ولا يزال ينطق تختلف آراء المستشرقين أو المستعربين، فبينما يرى رينان وفريق معه "أن دين الصحراء الطبيعي هو التوحيد" فإن رجلاً مشبعًا بأحقاد وأوهام المبشر المأجور مثل هاملتون جيب – وفريقًا معه – يرى عكس رأي رينان – الذي كتب رغم تعصبه المسيحي الشديد ينصف اللغة العربية، ويشيد بها، وتأخذه الدهشة مما اكتشفه من "كمالها ومرونتها" كما كتب ينصف نفسه بتسجيل ما هدته إليه ملاحظته من هذا الرابط الوثيق بين طبيعة الصحراء وبين الإسلام الذي هو دعوة جميع الرسل الذين رعوا الغنم، وعاشوا الحياة البدوية – فيما عدا قلة من الملوك الأنبياء من بني إسرائيل- مع انتسابهم بالتوراة وبجذورهم إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أي إلى الحياة البدوية نفسها..

يقول جيب في دعايته المسمومة ضد العرب والإسلام في كتابه الذي نشره تحت عنوان مضلل عن الإسلام وهو "المحمدية" : "قرر رينان أن دين الصحراء الطبيعي هو التوحيد، وكان رأي رينان هذا هو السبب في اعتبار الإسلام الذي يعطي صورة الإله الأحد العظيم الذي لا تدرك طبيعته العقول انعكاسًا لطبيعة الصحراء العربية اللانهائية الامتداد.." ثم يقول في الطعن على هذا الرأي بغير حجة" ولكن الأبحاث الحديثة أثبتت خطأ هذه النظرية.. فالإسلام تأثر بالقرآن العربي، وتأثيره العقلي على الثقافة الإسلامية أكثر من تأثره بالمؤثرات الاجتماعية المباشرة الموجودة حوله في البيئة العربية وفي أنصاره من العرب".

ونلاحظ مع ركاكة مفهومات جيب أنه يخلط بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام الذي هو من الله لا يتأثر بشيء أو بأحد، ولكن المسلمين عندما ظهرت فيهم، وبلسانهم، وعلى رجل منهم، دعوة القرآن

تأثروا بداهة بالقرآن، لأنه تكلم إليهم عن الذي يعرفونه، وعن إبراهيم وإسماعيل اللذين يدينون بدينهما، وعن بيت الله الذي يعيشون من حوله، ويعظمونه ويحرمونه، وينسكون ويصلون فيه، ويهرعون إليه للحج من كل فج عميق.. ثم كان كلامه إليهم عنهم، وبلغتهم.

لقد تكلم القرآن عن شعب بدوي يرعى الأنعام، ويعمل بالتجارة. وكانت كلمات القرآن العربية قد عاشت كلها فيهم من قبله، تبحث عن مستقر لمعانيها في شريعة وكتاب، حتى نزل الكتاب، وجاء الرسول، وتكاملت الشريعة.. فما هو العجب في أن تكون هذه الصحراء – في أمر الله وحكمته الظاهرة غير الخفية، قد أعدت من أجل كل العالم – هذا الشعب فوق صحرائه التي تتوسط العالم، لتكون العربية لغته، والإسلام دينه، والحضارة العربية الإسلامية عطاؤه.. هذا العطاء الذي رفع من قدر أوروبا، وهو ينقلها بأسباب العلم ومنهجه من مستوى دون البشر إلى مستوى البشر .. ولو أمام أنفسهم.. ونتيجة لهذا بالضرورة كانت قدرة هاملتون جيب وأمثاله على الطعن في الإسلام ونبي المسلمين.. في هذا العصر..!

ثم نستعرض بإيجاز معاني بعض الكلمات التي تنفرد بها اللغة العربية في أدائها للمعنى الديني الكامل، على أساس أنه الدين الحق، والتي يتأكد بها، وبتكاملها في التعبير عن حقائق هذا الدين أن اللغة العربية إلى جانب أنها لغة الأدب الرفيع، والحكمة البالغة، وأنها اللغة الجميلة، واللغة الشاعرة، واللغة الموزونة.. هي اللغة الدينية قبل وبعد كل شيء..

تحدثنا من قبل عن كلمة " الله " التي لخصت في أبلغ البيان المنزه عن التشبيه والتجسيد هذه الإشارة إلى الله، وبالإشارة إليه "هو" .. الغائب عن الحس، الحاضر بالمشيئة والفعل.. وهكذا أصبح اسم الله في إبهام

اللهجة العبرية "يا هو" وهو نداء للغائب الحاضر.. بينما ظهر في كمال العربية الفصحى تعريفاً وتعظيمًا لهاء الغائب يغني بالإشارة في أل التعريف وأل التعظيم مع الهاء.. عن النداء، فكان اسمه العظيم "اللّه". .

وننتقل إلى كلمة "الدين" وهي تختص بعدد من المعاني المحددة في عقيدة التوحيد، وليس للتجسيد، لم تتسع لها لغة أخرى غير العربية..

وقبل أن نشير إلى هذه المعاني نذكر الكلمة المقابلة لها في أشهر اللغات الأوروبية وهي كلمة religion، وتحاول بتقصي جذورها أن نحدد معناها المقابل لكلمة الدين العربية.

هذه الكلمة religion التي تدل على "الدين" في الإنجليزية والفرنسية متطورة من أصلها في اللاتينية وهو كلمة religio المنحوتة من المصدر religare وهذا المصدر يتكون كما هو ظاهر من مقطعين (1) re ومعناه "الإيثار" أو "التفضيل" و (2) ligare ومعناه "توثيق الارتباط".. وبذلك يكون المعنى المستفاد من الكلمة بتوحيد معنى المقطعين هو "إيثار توثيق الارتباط بالمعبود"..

وعلى هذا فإن كلمة religion لم تكن تعني، ولا تزال لا تعني إلا عبادة البشر، أو الأرواح، في معتقدات الأوربيين الدينية على اختلاف مذاهبهم من أيام الوثنية اليونانية والرومانية إلى عصر التثليث الحديث الذي انشقت تحته أوروبا بين الإلحاد الشيوعي، والانسلاخ العقلاني الغربي، وعبادة المسيح داخل الكنائس بالتجسيد المسيحي..

إن هذه الكلمة التي تعني الدين باللغات الأوروبية لا تدل على أكثر من "إيثار الارتباط بالمعبود" البشري، أو المتجسد في صورة البشر للدلالة على تأليه أحد عناصر الطبيعة، مثل تأليه زيوسzeus ومعناه "النهار"

باليونانية، والذي أصبح عند الفرنسيين Dieu، أو مثل تأليه God وهو عند الإنجليز إله قديم متجسد عن روح الغابات في صورة بشرية متميزة مثل آلهة اليونان.. فهو كائن أعلى بصفة عامة، ثم أصبح المعبود في المسيحية بوجه خاص..

وهكذا أصبح معنى الدين عند هذه الشعوب الأوروبية المتخلفة دينيًا إلى اليوم لا يتجاوز في فهمها وهي تنقل بدياناتها من الوثنية إلى المسيحية ثم من المسيحية إلى ما هو أقرب إلى الوثنية – يساوي مفهوم العبادة بالطقوس والقرابين لكائن أعلى كما يدل معنى الدين في اللاتينية وهو "الارتباط بالمعبود المتجسد في صورة بشرية" كما في تمثال أو أيقونة، وذلك من طريق الطقوس التي يتولاها الكهنة، والقرابين التي يحددون مقاديرها ومناسباتها وفوائدها، والتي لا تتجاوز أهدافها شفاء المرضى، وطلب الثراء، وإنقاذ المعرضين للهلاك، وتحقيق أماني العاشقين المهجورين !!

أما كلمة الدين في لغة العرب، وكما تم لها الوضوح التطبيقي في بيان القرآن الكريم، فهي في مجالها الواسع، والمستقر على الصدق والعلم، والهادف إلى بناء الفرد المؤمن الذي يبني المجتمع المؤمن تخرج من المعنى المجرد إلى المعنى الاصطلاحي من الفعل "دان – يدين" بمعنى "خضع – يخضع" من هذا المعنى الدال على مطلق الخضوع تظهر كلمة الدين بمفهومها العام الذي تعبر به عن جميع دلالاتها الاصطلاحية في طبيعة هذه اللغة العربية الدينية .. **وذلك على الوجه الآتي من المعاني المتكاملة في مفهوم الدين الحق:**

أولاً: جاءت كلمة الدين بمعناها الأساسي وهو الخضوع الخالص لله الواحد الحق، والعبودية التامة له بمفهوم الإيمان الصادق به، وبرسله، وشرائعه، قلبًا وقولاً وعملاً.. وفي هذا المعنى الأساسي يقول الله "ألا لله

الدين الخالص" أي العبودية الخاصة من أي شرك، والتي تتأسس بها عزة المؤمن بالله على غير الله، فلا طاعة منه إلا لله، ولا طاعة منه لأحد من البشر إلا في طاعة الله. ويقول الله أيضاً "قل الله أعبد مخلصًا له ديني" أي متمًا له بغير شبهة أو غفلة أو تردد خضوعي وعبوديتي، وحبي له فوق كل شيء وطاعتي..

ثانياً: ولما كان هذا الخضوع الخالص والمخلص إلى الله لا يستقيم الجدية، والصدق فيه، في حياة الفرد والمجتمع بغير "نظام اجتماعي" يقوم على نهج واضح، وبغير منهج واضح تحدده شريعة تامة، تنظم العبادة والطاعة، والتنافس فيها إلى الله، في حياة كل يوم، وعمل كل يوم، وفي علاقة المؤمن في ضوء هذا الإيمان بنفسه مع الله، وبنفسه مع الآخرين.. فقد جاء من معاني الدين بعد معني "الخضوع الخالص" معنى مكمل ومنبثق من هذا الخضوع هو "الشريعة" أي المنهج والحدود والنظام الذي يستوعب حياة المؤمن، ويقدم له ضوابط حياته كلها، وحوافزها، إلى أهدافها القريبة والبعيدة.. وفي هذا المعنى يقول الله "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك " ويقول أيضًا "أم لهم شركاء رعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله".

ثالثًا: ثم يعرض القرآن الكريم معنى الدين بعد ذلك على أنه في سياق معانيه المتكاملة – هو "يوم الحساب" على هذه الأعمال التي يقوم بها الناس وفق منهج الدين وشريعته وحدوده وأحكامه، أو بخلاف هذا المنهج.. فالدين هو يوم الحساب للناس جميعًا على أعمالهم مؤمنين وغير مؤمنين.. وهو يوم لا يتم إيمان المؤمن بالله إلا بأن يؤمن به، وبالبعث، حيث يستوثق البشر أنهم لم يخلقوا سدى، وحيث يجري الحساب باتجاه الحياة الأخرى الخالدة على كل عمل، وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر.. وفي هذا

المعنى يقول الله "مالك يوم اليدن" .. ويقول " إنما توعدون لصادق، وإن الدين لواقع" أي إن البعث حق.. والحساب حق..

رابعًا: كذلك تأتي كلمة الدين شاملة لهذه المعاني كلها بمعنى أن الدين بإخلاص العبودية لله، والتزام الطاعة له بشريعته، والإيمان بيوم البعث والحساب إنما هو الإسلام، وذلك حيث يقول تعالى "إن الدين عند الله الإسلام"..

خامسًا: ولما كان من سنن الله أن الله لم يخلق الناس في تدافعهم إليه، أو صراعهم بعيداً عنه على دين واحد، وأمة واحدة، فهم كما يقول "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم" فقد كان كمال معاني كلمة الدين في كمال القرآن أن تدل أيضًا في أحد معانيها على انه "عقيدة ما.. تفسر الحياة والإنسان والوجود لمن يعتقدونها" سواء أكانت الدين الحق الذي يفسر الحياة والإنسان بأنهما خلق الله، أو كانت دينًا أسطوريًا يتعبد للبشر أو عناصر الطبيعة، أو كانت مذهبًا فلسفيًا ماديًا أو مثاليًا يخضع له بعض الناس، ويخرون على ما فيه من الشطط والوهم صمًا وعميانًا.. وفي هذا المعنى لكلمة "دين " المطلقة بغير تعريف يقول الله "لكم دينكم ولي دين" وهما بالتأكيد دينان مختلفان .. وكما يقول في قصة يوسف "ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك" أي في عقيدة الملك الوثنية التي هي دينه ، الموجب الخضوع له من دون الله.. وهي إن لم تكن دينًا حقًا فهي دين بمعنى "تفسير ما للحياة والإنسان والوجود"..

ونلحق بكلمة الدين في جلاء اللغة العربية لمعانيها في ضوء الوحدانية الخالصة من الخرافة والقهر كلمة "الإيمان" .. فالإيمان الذي هو في معناه العام "التصديق" حمل في مفهوم اللغة العربية ما يشير في طابع الفعل الثلاثي

الذي يرجع إليه وهو "أمن" ما يشير إلى التصديق بالدين الحق.. الدين الذي نزلت كتبه وشرائعه من عند الله على أرض العرب.

فالإيمان يحمل من "الأمانة" عنصر الاختيار للحق دون الباطل، ولله دون الشركاء، أو الآلهة المجسدة.. نعم إذا كانت الأمانة في قول الله "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان" إنما هي إرادته واختياره لأحد الطريقين: الهدى أو الضلال.. فإن الإيمان في اللغة العربية لا يعني إلا الإرادة المبصرة في اختيار الهدى إلى الله في مقابل الإرادة الكافة، أو المحجوبة بالأهواء، في اختيارها للضلال والإلحاد..

هذا الإيمان الذي يحمل به المؤمن أمانة الله يحمل أيضاً بهذه الأمانة جزاء هذه الأمانة، وهو الأمن الخالص.. الأمن الكامل.. الأمن الذي يتحقق به فوق كل عقبه، وأمام أية قوة، سلام النفس مع الله .. سلامها الذي لا يتزعزع في قلبها .. وفي عقلها .. وفي بصيرتها. وفي قيام كلمة "الإيمان" في اللغة العربية بدلالة الأمن بعد الأمانة في تركيب حروفها، وبنية مادتها، إشارة قوية إلى ما تميزت به هذه اللغة العلمية بالدين، والدينية بالعلم، من ربطها بين القلب والعقل في معنى العقل، كما جاء في قوله تعالى "أو لم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها" .. فكيف يعقل الإنسان بقلبه، بينما عقله في رأسه، وقلبه ليس إلا مضخة لدمه في جسده!؟

هنا نفسر حقيقة الإيمان المرتبطة بالأمانة والصدق والأمن هذا الربط بين العقل والقلب في اللغة العربية، وفي لغة القرآن، وبين قيام الإيمان في اللغة العربية في بنائها البياني والعلمي على امتلاك "الصدق" في رؤية الوجود، والتفاعل معه، هذا الصدق الذي اتجه به الإيمان والتصديق إلى الله، تعبيرًا عن الصدق العقلي وعن صحة عمل الحواس، وهو الصدق أي

لا يمكن الاستدلال على وقوعه بسؤال العقل، أو الفكر، أو السمع والبصر.. ولكن يمكن الاستدلال عليه، والتحقق منه، بسؤال القلب.. الذي هو في كيان كل إنسان "جهاز" الكشف عن الصدق والكذب بمقياس حسي لا يشك فيه أحد وهو الأمن أو الخوف.. فمع الصدق يكون الأمن، ومع الأمن يدق القلب دقًا طبيعيًا منتظمًا أمنًا مهما كان التخويف أو التهديد له.. كما دق قلب إبراهيم دقًا منتظمًا وهو يجادل الملك الجبار عن إيمانه حتى قهره بالحجة، وبهته بالدليل.. وكذلك فمع الكذب الخوف.. ومع الخوف يتسارع النبض، ويضطرب الفكر، ويزيغ البصر، وتقع الهزيمة..

هكذا أقامت اللغة العربية الصادقة بناء كلمة الإيمان على الرؤية الشاملة لحركة الصدق ودلالاتها الحسبة بالأمن في حياة الإنسان، هذه الرؤية التي كشفت عن هذه العلاقة العضوية بين عملية العقل العاقل الذي يحمل أمانة لاختيار للهدى والحق، وبين انتظام نبض القلب الدال على الأمن، عبيرًا حسيًا يلمس بالأصابع، ويقاس بالأجهزة الحديثة عما بلغ من صدق العقل بالإيمان الحق.. وهكذا تعلمن اللغة العربية اليوم بتفسير ما لم يسبق إليه مفسرو عصور الانحلال أن الله قد خلق تحت الصدر هذا الجهاز الذي يعلن لصاحبه عن وجهة عقله بين دلالتي الإيمان والكفر.. إنه يعلنه له ليسمعه أمنًا وسكينة.. أو خفًا وقلقًا.. وفي هذا المعنى يقول الله عن إبراهيم "إذا جاء ربه بقلب سليم" أي سليم من الخوف لأنه أمن إلى اختيار عقله للهدى والإيمان..

ويقول الله وهو يكشف عن هذه العلاقة بين الإيمان والأمن "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" أي إن الأمن هو لأهل الإيمان الصادق الذي لا تشوبه إلتواءات التفكير، أو اضطرابات

العقل والنفس بما ينتهي إلى إظهار الإيمان وإبطان للكفر، وهو ما يسمى بالنفاق..

هذا هو الإيمان الدال في مفهوم الكلمة العربية القرآنية على قيام الحياة العربية الأولى على الصدق. وهي دلالة تنبهنا إلى سبب فقدان الأمن في حياة المجتمعات الوثنية، واستفحال ذلك في الحياة المعاصرة التي تقودها الحضارة الأوربية الحديثة تحت أعلام الإلحاد واللادينية في اتجاه التخيل والروايات المختلفة، وأكاذيب المسرح والسينما.. ووراءها مخططات التوسع والعدوان، مع تجارة الترف والموبقات وعقارات الهلوسة والخمر..

إن الإيمان بهذا المعنى الذي تكشف عنه اللغة العربية الدينية يفسر لنا جميع هذه الآيات التي جرت على أيدي المؤمنين الأوائل، والتي كانت ولا تزال تبدو لمن هم دونهم إيمانًا كأنها من الخوارق أو الخيالات. كما ينبهنا مرة أخرى إلى أن الإيمان الكامل هو الذي ينبع من الصدق الكامل وأنه بذلك يمنح المؤمن هذا الأمن الكامل الذي يجعله على كل ساحات جهاده أثبت قدمًا، وأرهف سمعًا، وأحد بصرًا، وأسرع إلى أهدافه الإنسانية المشروعة تقدمًا وبلاغًا..

وإذا كنا في هذا الحيز لا نملك متابعة الكلام عن الكثير من الكلمات العربية الحية التي تحمل بالصدق والإيمان في بناء اللغة العربية الدينية ما لا تحمله الكلمات المقابلة لها في اللغات الأخرى، وهي كلمات كثيرة لا تقع تحت حصر فإننا نكتفي بالإشارة إلى برهان قاطع حول هذه الكلمات التي دخلت بصدقها وثروتها دخول الفاتحين إلى لغات الشعوب الآرية عند دخولها إلى الإسلام مثل إيران وتركيا.. في لغات هذه الشعوب، ورغم تعصبها الشديد لقوميتها، وتهاونها في الإسلام الذي فهمته في ضوء مذاهبها القديمة – لا تزال هذه اللغات شديدة التشبث بما نقلته من اللغة

العربية، من تلك الكلمات المتصلة بالاعتقاد والدين والأخلاق مما لم يكن لمثله وجود سابق في الفارسية أو التركية..! نعم لا تزال الكلمات العربية، حتى وإن كان الإيرانيون والأتراك ينطقونها إلى اليوم برطانة أعجمية، تحمل الدلالة على فضل الله بهذه اللغة التي لا قدرة حتى لأعدائها إلا على تقديسها واحترامها.. ولم يكن لهذه اللغة العربية الحية، الكريمة، من سلطان في كل جهادها داخل وطنها وخارجه إلا الصدق.. الصدق البياني.. والصدق العلمي.. والصدق الديني.. في الدلالة الدائمة على الله.

المساواة في اللغة:

واللغة العربية في صدقها الديني لا تعبر فقط عن هذا الصدق في معاني وبنية الكلمات الأساسية بناء صرح الوحدانية والإيمان، وإنما تقدم بكل حركتها وإشاراتها دليل هذا الصدق في ضبطها للعلاقات بين الناطقين بها على أساس الوضوح والمساواة الإنسانية التي أكدتها الشريعة الإسلامية بعد أن كانت هذه المساواة إحدى حقائق الدين والإيمان في الجزيرة العربية منذ إبراهيم وإسماعيل..

إن اللغة العربية بالقياس إلى اللغات الآرية والأوربية تحدد الضمائر تحديدًا كاملاً. إنها لا تحمل هذا الطابع الطبقي الظاهر في اللغات الأوربية التي تفرض هذا التعظيم بإهمال استعمال كلمة "أنت" وتعميم استعمال كلمة "أنتم" للمخاطب الفرد، كما في الفرنسية "vous" وهي تفرضه أشد من ذلك في اللغة الإنجليزية التي تجعل للخطاب كلمة واحدة تعني " أنتم " سواء أكان الخطاب للمفرد أو للمثنى أو الجمع فالكل "أنتم" أو "you" للتعظيم الطبقي حتى وإن دخل العامة في جملته .. فلا بأس حتى لا يحدث أبيدًا أن يقال للسيد العظيم، حامل اللقب الوهمي "أنت" .. فيتساوى – ويا للعار- مع الدهماء !!

ففي اللغة العربية لا يقال قط للمفرد حتى وإن كان نبيًا "أنتم" ، فاللغة العربية تعي – وهي تحكي سرائر الناطقين بها – أن التمييز للفرد لا يكون بالأشكال والصيغ بل بالأعمال والمآثر، وأن سيادة الفرد في قومه أو مجتمعه لا تكون بالقهر على احترامه، وإنما تكون بحمدهم له على فضله وخلائقه وإيثاره لغيره على نفسه .. ومن الاحترام ينبع الحب، وتقوي الأواصر المتساوية..

وهكذا لم يكن يخطر على بال الناطقين الأوائل باللغة العربية أن رجلاً فردًا أو قلة من الأفراد يقهرون شعبًا على أن يكذب ضد حواسه، وأن يسخر من الواقع، وهو يقول للواحد "أنتم" لأن هذه الطبقة قهرت الجميع على خشيتها، وجعلت من طواغيت الملوك والأمراء ومن سموا أنفسهم بالنبلاء والأشراف جنسًا قائمًا بذاته، قاهرًا للشعب الذي يسوده بالخوف ووسائل "الصراع" !. وأن تخضع أيضًا لغة هذا الشعب لتجسيد هذا القهر الطبقي في صياغة الضمائر فيكون ضمير المخاطب الوحيد هو "أنتم"!!

كذلك لم يكن يخطر ببال الناطقين الأوائل باللغة العربية أن تمتهن هذه اللغة الصادقة الأمنية الشريفة، لغة القرآن الكريم، على لسان من تكلموا بها من الفرس والترك، وفي إبان فوضى الزندقة التي أشاعتها الفرق الباطنية الشعوبية، والمظالم التي فرضتها العنجهية الابتزازية التركية – فيظهر فيها من هذه الأكاذيب الطبقية القهرية كلمات "حضرتكم" للفرد ..وعزتكم .. وسعادتكم .. وفخامتكم .. أيضًا بحسب درجات الهرم البشري !!

لقد كان خطاب الفرد بلسان الجمع " خوفًا وذلاً: أمرًا تنزهت عنه لغة الدين الحق، الذي يتساوى بلسانها البشر إنسانيًا أمام الله، بنفس الدقة والوضوح الذي يتساوون به من حيث المسافة التي تفصل بينهم. وهم المخلقون – وبين الله الذي هو الخالق، فلا يكون تمايز بعد ذلك إلا بالعمل الصالح، وهو تمايز لا يعطي امتيازًا طبقيًا للمحسن، وإنما يعطيه مع حق عمله حمدًا وإيثارًا لصالح الآخرين، وبالتساوي الإنساني الكامل مع الآخرين، كما كان الأنبياء وصحابتهم بين أقوامهم، يتجملون بأعمالهم، ويتنزهون عن ألقاب الأمم المتظالمة بطبقاتها ولغاتها من حولهم..

لقد بقى هذا الدليل الدافع على أن اللغة العربية هي لغة "المجتمع الفاضل" بمقياس السواسية بين البشر مجهولاً في تفاسير علم اللغة العربية، وهو التفسير الأجدر بالظهور والوضوح في هذا العصر الذي تتصدى فيه المذاهب الاجتماعية على حساب الإسلام للادعاء "الصوري" أو "الخيالي" بالعدل والمساواة.. بينما نبتت من بذور كلمات "أنتم " بدل "أنت" ، "نحن" بدل "أنا" في اللغات الأوربية المختلفة، والآرية الموازية لها، شجرة الألقاب الكريهة السامة التي تذبل تحت ظلها المحرق جماهير المحكومين بالمراتب الطبقية، والماسونية، والحزبية، في جميع المذاهب والأيديولوجيات الأوربية السائدة في عصرنا الحديث..

من البداية، ومنذ اختار إبراهيم أن يسكن بولده في جزيرة العرب "بواد غير ذي زرع" حيث لا ملوك ولا كهنة، أي لا قهر ولا أكاذيب، كانت الألقاب مرفوضة، ومستنكرة، بين العرب وبخاصة من أبناء إسماعيل الذين لم يتأثروا بالفرس واليهود في اليمن والعراق، أو اليونان والرومان في الشام ومصر.

لم تكن هناك من صور التكريم إلا الكنية وهو أن ينادي الرجل أو المرأة باسم ذي دلالة عامة على كل منهما، وذلك كنسبة الرجل والمرأة إلى الأب مثل "أبو الخطاب" لعمر بن الخطاب، و"أبو الوليد" لخالد بن الوليد. أو بإطلاق صفة حسنة ملازمة للموصوف مثل "الفاروق" لعمر و "سيف الله" لخالد، وفي النساء مثل " أم المؤمنين " لعائشة أو " أم الكملة " وهي سيدة منجبة في الجاهلية لأربعة أبناء بلغوا كمال الفضل بأخلاقهم وعملهم وأما " الألقاب" التي حملها الملوك والكهنة والجبابرة والغزاة في الحضارات الآرية القديمة والحديثة، وفي البلاد العربية التي تأثرت بغزو هذه الحضارات حول الجزيرة، فقد أخذت في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم، معنى عكسيًا تمامًا، إذا كانت هي الأسماء التي تصاغ للسخرية من بعض الأفراد بسبب عيب خلقي. أو حادث يثير السخرية بهم، مثل " الأعشى" الشاعر الجاهلي الذي كان لا يبصر بالليل، ومثل "تأبط شرا" ومثل "أبو جهل" و"أبو لهب" كما ورد اسم الأخير في القرآن الكريم..

فاللقب في اللغة العربية التي تبني السواسية بين الأفراد لا يعني إلا "النبز" والنبز هو اللمز باللقب الساخر.. وفي القرآن الكريم ينهي الله المؤمنين عن التنابز بالألقاب، أي وضع الأسماء الساخرة التي تلصق بأصحابها وهو في هذا يقول "ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب".. على إن هذا النهي قاصر على المؤمنين فيما بينهم، ومن الجائز أن يضع المؤمنون ألقابًا لأعدائهم وأعداء الله كما وضعوا لقب "أبو جهل" لعمرو بن هشام بن المغيرة الذي كان يكنى قبل الإسلام "أبو الحكم" فلما عادى النبي والإسلام لقبه المؤمنون بأبي جهل.. فلقد كان الكفر ولا يزال أعظم الجهل.

ولم تكن إذن في طبيعة العرب ولا في طابع لغتهم هذه النزعة إلى الإبهام والتخويف لكسر فطرة الله في سواسية البشر الإنسانية، فرفضوا "عملة" الألقاب التي كانت "تصكها" بالسلطة، وتمنحها في المراتب الطبقية لعملائها وخدمها، وتحرم منها المقصودين بالضغط الطبقي، والابتزاز الاجتماعي، وسخرة العمل من المستضعفين من الفلاحين والحرفيين والعمال. واحتفظ العرب بالصفات والنعوت الحسنة لأصحابها بحسب مجال تفوقهم، وهي صفات يطلقها الناس باختيارهم، وتصبح هذه الأسماء مشهورة بقابليتهم لها، وتصديقهم لطبيعتها بغير غواية أو قهر.

وأما مراتب العمل فلم تتخذ شكلاً طبقيًا، واحتفظت باسم العمل مجردًا من التميز أو المزايا، بل مسخرًا للخدمة العامة والإيثار، ومحكومًا بحق النقد واللوم والعزل من الناس المتساوين، وذلك مثل أعمال النيابة عن الناس بإجراء الأحكام مثل أمير المؤمنين، وأمير الجند، والقاضي، والفقيه، والكاتب، والمعلم..الخ، فهي ليست صكوكًا لعملة الألقاب ومراتبها، وإنما هي صفات للعمل لا تعطي صاحبها إلا حق الحمد على عمله، ومسئولية الإحسان فيه أمام من يعمل ابتغاء الله في مصلحتهم، ليحمدوه أو يقوموه..

وهكذا كان المجتمع العربي بوحي عقيدته، وطبيعة لغته، قبل وبعد الإسلام، يعيش في السوق، والمنتدى، كما في المسجد والدرس، وساحة الجهاد والقتال، صفوفًا متجانسة، متساوية، ليس فيها فئة كبيرة وأخرى صغيرة، تمامًا كما قام برسم حروف كتابته التي علمها للبشر على طبيعة لغته وعقيدته، فليس فيها – كما انعكست طبقية أوروبا على كتابتها- حروف كبيرة Capital، وحروف أخرى صغيرة Small

فالجميع واحد لا يميزهم إلا جهد العمل، وصدق النية فيه، وتوجيه الإيمان له..

الرجال والنساء:

وفي مجال الكلام عن المساواة في تركيب اللغة العربية لا يمكن أن نغفل دلالات هذه اللغة في علم أصواتها واستعمالاتها على هذه المساواة بين الرجال والنساء بوحدة الأصل الإنساني، والتكامل الوظيفي.. مساواة تجمعهما في حق الحياة، والعلم، والعمل، والتصرف في النفس والمال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما خلاصة الحقوق السياسية والاجتماعية، التي لم تنلها أكثر نساء العالم إلى اليوم..

إن الرجل العربي كان ولا يزال بلغة دينه ومعروفه ولسانه أن الرجل والمرأة شطران يتساويان عند اتحادهما في صنع إنسان كامل، وأن هذا الاتحاد لا يحقق مفهوم المساواة عند بناء الأسرة إلا على أساسه المستقر في بناء المجتمع بالإيمان والطهر والصدق، وبالتسابق بالحق لحضانة وتنمية الذرية الصالحة في مناخ هذا الإيمان..

إن الرجل العربي لذلك لم يبتذل امرأته، بل تباري في تكريمها وحصانتها، واعتبرها بالتكريم برهان كرامته، وشعار إبائه، وحافز سعيه وطموحه، وقد عبرت لغته عن كل هذه المعاني في اشتقاق اسم "النساء" من صميم المعنى الإنساني في كلمة "الإنس" أي البشر، وليس من "النسيان" .. فمن "الأنس" بضم الألف والذي معناه وقوع الألفة بالحياة الاجتماعية كما يتميز النوع البشري أخذ "النساء" اسمهن الدال عليهن، كما أخذ اسم النوع دلالته من هذا الأنس الاجتماعي فقيل "الأنس" و "الإنسان"..

فاللغة العربية أعطت النساء طابع الإنسان المميز وهو "الأنسية" ، ومن ذلك ما ردده الشعر العربي القديم من تقديم صفة "الإيناس" بالحديث، والأنسية في الخلق، على كل صفة أخرى من صفات جمال المرأة.. فمن ذلك ما يقول امرؤ القيس يصف دار من يحب:

دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم

ويقول آخر:

بيضاء آنسة الحديث كأنها قمر توسط جنح ليل مبرد

ومن هذه الأنسية والإيناس أصبح النساء الآنسات" سكنًا" لأزواجهن، تماسكت بهن في المجتمع أواصر "الإنسانية" في المودة والرحمة ومن ذلك قوله تعالى ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها**﴾...

هذا بينما حمل الرجل اسمهم في اللغة العربية من معنى مساواتهم للمرأة بالحركة والسعي في الأرض، وذلك حتى يبقى اختصاص المرأة الأول هو شرف "الأمومة" وضبط إيقاع الأسرة، مع بعض الأعمال عند الضرورة، وهكذا كان الرجل والراجل ساعيًا على قدميه من أجل الأسرة، ومع المجتمع، حاملاً مع من سكن إليها أمانة الماضي إلى أمل المستقبل..

هذا الإنسان العربي عامل امرأته بالتساوي معه، فهي حرة مثله، وهي بهذه الحرية كما يفهمها حرة – لا في أنها تملك نفسها فقط، وإنما في أخلاقها، وحياتها، وبعدها عن العيب، واللغو، والصغار، واعتزازها بخصائصها النفسية والأخلاقية عن أن تنزل بها في أي موقف، وبخاصة عندما تختار الرجل الذي تتزوجه، وتلد أولادها منه ليكونوا مثلها ومثله

أحـرارًا بمفهـوم يتجـاوز حريـة الإرادة، إلى الحريـة الأخلاقيـة، أي بمعنـى ضبط الإرادة الحرة عن كل ما يشين من الابتذال، أو الأثرة ، أو اللغو، أو هدم الأسرة والعشيرة والجماعة..

مـن هـذه الحريـة رغبـت المـرأة العربيـة دون تسـلط مـن الرجـل في أن تحجب عن غير المحارم محاسنها، وأن تسبغ وتدني من ثوبها، وان تغض من طرفها وصوتها حتى لا تفتن أحدًا، ولا تفتتن بأحد، في مجتمع ينظر إلى كل شيء بالجد والوضوح، وليس بسن ضوابطه الأخلاقية والطهرية مجال لشيوع الجنس، وابتذال الأجسام، وخيانة الأزواج، وضياع الأنساب..!

اعتبرت المرأة العربية أن الحجاب من سمات حريتها الأخلاقية، وصفة تعني الالتزام بالطهر حتى من فتنة النظرة العابرة. وهي ترى أنها بهذه الحصانة تميز نفسها بين الحرات عن "الإماء" اللائي قضى عليهن تظالم البشر بالبيع في أسواق الرقيق، مجلوبات من ضحايا "الصراع الطاغي" على أرض الروم والفرس، ومنقولات إلى الأرض العربية في بضاعة التجار من اليهود الذين كانوا في عملهم لتخريب الجزيرة قبيل الدعوة الإسلامية يبيعون للعرب المال بالربا، والإماء للخدمة، والقبان للمتعة، والخمر للفتنة، والأسلحة للحرب التي لا تكاد تتوقف رحاها بينهم تحت تأثير هذه العوامل كلها من الربا والقيان والخمر والأسلحة في بضاعة وخطط اليهود لتعويق صحوة العرب المرتقبة..

كانت المرأة العربية تحتجب باختيارها، وترى الحجاب زينتها، ماعدا ساعات المواجهة بالحرب التي كان يشهدها الرجال والنساء معًا بالضرورة ففي معترك القتال وهوله تضع المخاطر حجابًا على كل الوجوه، وتشارك المرأة بكل جهدها في الحرب. كذلك يحل سفور الوجه للمرأة عندما يشتد حزنها على فقيد من أهلها أو عشيرتها..

تقول هند بن النعمان وهي تصف صاحبتها صفية الشيبانية وقد سفرت في الحرب بين العرب والروم والتي انهزم فيها الفرس في موقعة ذي قار، وكان سفورها لتحرض فرسان قومها على العدو:

المجد والشرف الرفيع الأرفع ... لصفية في قومها يتوقع
ذات الحجاب لغير يوم كريهة ... ولدى القتال يحل عنها البرقع

وفي فقدان الأعزاء يقول الربيع بن الزياد في وصف حزن النساء وهن يبكين سافرات بعد مقتل مالك بن زهير:

قد كن يخبأن الوجوه تسترًا ... فاليوم حين برزن للنظار
يضربن حر وجوهن على فتى ... عف الشمائل طيب الأخبار

هل هذه المرأة الحرة، والمطهرة، والصادقة، والتي لم تكن قوامة الرجل عليها في الحياة العربية الأولى وفي الإسلام إلا في حدود الدين الذي يحكمها، والطهر الذي يصون في الابتذال حياءهما.. هل هذه المرأة العربية وهي نصف الشعب ونصف المجتمع لها "دور" في حياتها الواضحة يصنع "عقدة" لا تجد الحل إلا في القصة الخيالية أو المسرح!؟

هل هذه المرأة الحرة، المتساوية مع الرجل، بالمشاركة، والتكامل، والتي هي وهو متساويان مع الآخرين جميعًا في حقوق الإنسان التي ملكوها بالفعل لا بالخيال كما تتساوى حروف كتابتهم العربية، في لغتهم العربية، فليس فيها حروف كبيرة وأخرى صغيرة.. هل هذه المرأة والرجل في مجتمعها الفاضل.. مجتمع السواسية .. مجتمع الأخوة، بغير طبقات، ولا ألقاب، ولا كهانات، ولا مظالم، ولا أكاذيب – يمكن أن ينزلا عن مكانتهما الإنسانية، ومآثرهما العملية، ولغتهما الدينية البيانية، ليقبلا المسخ.. وليطلبا المسخ لنفسهما داخل فكر متخمر بالصراع،

وتخلقات الخوفوهذيان الطمع، ورطانة العجمة، في رواية خيالية، أو قصة مسرحية، يضحك منها أو يبكي المقهورون، تحت رعاية السلطة الطبقية، التي كانت منذ نشأة هذه الفنون العزائية هي التي ترعاها، وتشجع عليها، وتجزل العطاء لمن يعتقون خمرها، ويحملون وزرها..!!؟

القصص علم:

وأخيرًا نصل في رحلتنا مع اللغة العربية الدينية إلى كلمة القصة، والقصص، لنستكمل تصور واستحضار ووعي هذه الحقائق والخصائص التي تميز الأدب العربي بالديانة واللغة والطابع الاجتماعي السلمي وبالقصص الصادق الذي يحكي الواقع ، ويقدمه للسامع، وللأجيال، حيًا بمشاهده، ومعبرًا عما فيه من طبائع الحياة وسننها، وسمائها وأرضها، وتدافعها وتغيرها، وبدئها وإعادتها، تحت حكم واحد، واتساق متجدد كأنما يشهده الشاهد بنفسه، ويعيش فيه بحسه وخياله وعقله..

وكلمة قصة وقصص أصلها من فعل قص: يقص، بمعنى تتبع الأثر، وبهذا تجرد معنى "القصص" من أعمق جذوره في الفعل العربي، وفي جميع استعمالاته الاصطلاحية من أي تخيل أو تلفيق، أو تصور لما يقع، فالقص الذي هو تتبع للأثر هو "عمل قياسي" كالقياس بالموازين والمكاييل والاجهزة المماثلة، كما أنه في نفس الوقت عمل "تسجيلي" علمي لنتيجة القياس، وهو لا يحتمل في النتيجة أي زيغ عن الحقيقة العملية المجردة، وإلا خرج من معناه وهدفه.

ومن كلمة قص يقص بمعنى تتبع الأثر بأشكاله المتنوعة على الأرض لقراءة الأحداث بآثارها، والكشف عن الأخبار المهمة في الأرض بقراءة ما تتركه انطباعات الأقدام وخفاف الإبل وحوافر الخيل، وامتحان

ما يسقط من القافلة، أو كتيبة الحرب، أو آثار ما أكلوا وما شربوا، وما ناموا وما هبوا، مما لم يكن عنه غناء في حياة لا تتوفر فيها الحرية إلا للساهرين على صهوات خيولهم – خرج المعنى الاصطلاحي قص: يقص أي تتبع الصحيح وأعلم عنه ، بنفس الدقة والتحري والأمانة العلمية في قص الآثار على الأرض، أو في السماء لتمسًا للغيث، واستعلامًا عن الأنواء وحركة الرياح.. وفي جلاء هذا المعنى من تتبع الخبر بالصدق والإعلام عنه يقول الله "نحن نقص عليك أحسن القصص" أي أصدق الأخبار عن الأفراد والأمم..

ومن هذا المعنى يأتي :القص" بمعنى القطع قطعًا ماديًا حسيًا مثل القطع بالمقراص، أو قطعًا معنويًا بمفهوم الحكم القاطع، ومنه كلمة "القصة" التي تعني الأمر، ومنه "القصاص" بمعنى تتبع الذنب بالحكم القاطع لأثره، والرادع لصاحبه عنه، وللناس أيضًا بالتحقق من صدق القصص أي التتبع بالعقوبة للمذنب.

ومن القصص بمعنى الأخبار تأتي أيضًا كلمة "القصة" بمعنى الظلامة أو الشكوى يرفعها صاحب الحق إلى الأمير، فيأمر عليها بما يرد إليه الحق، أو يرفع عنه الحيف، وفي العقد الفريد أن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وقع في قصة رجل شكا فقرأ فقال:" قد أمرنا لك بما يقيمك، وليس من مال الله فضل لمسرف".. أي قضي له من مال الله بالكفاية التي لا تتجاوز ماله من الحق في هذا المال.

"القصص" إذن عند العرب لا يعني أكثر من تتبع الصدق الذي يكمل به الأعلام عن خبر صادق، تتجلى به حقيقة نافعة، وسنة من سنن الله سائرة، وعظة وذكرى لمن ألقى السمع، وهي بذلك تدخل مع كونها أدبًا ودينًا في باب علم التاريخ.. وما أعظم هذا في فضل القصص الحق.

وعندما نبحث عن معنى كلمة "قصص" في الشعر العربي قبل الإسلام وبعده لا نجده يدل على معنى غير الذي أوردناه وأشارت إليه معاجم اللغة التي في أيدينا اليوم.

فمن ديوان عبيد بن الأبرص نسمع له يقول في استعمال واضح لكلمة القص:

ولا تتبعن رأي امرئ لم تقصه ولكن برأي المرء ذي اللب تقتدي

أي لا تسمع لرأي رجل لم تتبع أخباره فتتحقق من رجحان عقله، فإن الإتباع والإقتداء يكون لذوي الألباب.. فالقص هنا هو تتبع الدلالات على العقل والخلق.

ويقول زرعة بن عمرو يصف حال امرأة مريضة ناء عليها الدهر:

وأرملة تتوء على يديها من الضراء أو قصص الهزال

وواضح أن قصص الهزال معناه آثاره ودلالاته الدالة بتتبع النظر عليه، كذلك فمن استخدامات الشعراء المسلمين لكلمة "قص" قول عمر بن أبي ربيعة :

فقلت شكا إليِّ أخ محب كبعض زماننا لو تعلمينا
وقص ما يلقي بهند فنذكر بعض ما كنا نسينا

وقص ها بمعنى روي أخبار ما يلقى من صاحبته، متبعًا لهذه الأخبار أمرًا بعد أمر..

وإذا كان في ذلك ما يحقق أن القصص في كل ما يدور به في لغة العرب، وفي حياتهم، وفيما أورده القرآن الكريم، هو أخبار صادقة التتبع العلمي للحقائق، حتى وإن يكن في ثوب الأدب والبيان بحيث تكون أمام

من غاب كمن حضر، وعند من سمع كمن رأى – فإننا نضيف ما يؤكد هذا المعنى وهو أن "الخبر" نفسه في لغة العرب، وفي حياتهم، وفي دينهم، لا يمكن إلا أن يكون صادقًا صدق العلم والمعرفة اليقينية..

الخبر في لغة العرب معناه النبأ، والنبأ الصادق في لغتهم علم، والعلم يترادف مع المعرفة في مفهومها عن العلم الأخلاقي.

وبالتقصي عن جذور كلمة "النبأ" نجد أصلها من النبئ ومعناها الطريق الواضح، والمكان المرتفع، والنبأ بسكون الباء هو الارتفاع ومنه النبي أي المخبر عن الله. .

وبالتقصي عن جذور كلمة "العلم" تجد أنها من العلم بفتح العين وفتح اللام، ومعناه الجبل كما يدل المثل المشهور عن الرجل المشهور" كأنه علم في رأسه نار" أي هو ظاهر ظهور النار على رأس جبل، وإذن فكلمة العلم تتفق مع كلمة النبأ في الدلالة الجذرية على المكان المرتفع الظاهر.

وهكذا تمامًا تجد معنى كلمة " المعرفة" من " العرف" بضم العين وجمعها " الأعراف" وهي رؤوس الجبال الظاهرة لمن يبصرها من بعد ظهور الحقائق المؤكدة على ساحة الكلام والحديث.

يدل هذا كله في أصول اللغة العربية الراشدة على ان كلمات "النبأ والعلم والمعرفة" تتفق في دلالاتها على كل ما يكون وضوحه في الحس والإدراك "يقينًا" كرؤية الجبال الراسخة.." والقمم الشامخة بالعين المجردة دونما ريب أو ظن.

ولما كان الخبر الصادق نبأ صادقًا، فالخبر الصادق نتيجة لهذا هو علم أيضًا ومعرفة، كما تجري بذلك لغة العرب إلى اليوم. ولما كان "القصص" خبرًا صادقًا يتتبعه القاص بالصدق ليعلم عنه، فقد أصبح حقًا

أن يوصف القصص الصادق الذي هو خبر صادق بأنه نبأ صادق، وعلم موثوق ، ومعرفة لا ريب فيها. .

وإذا عدنا بعد ذلك إلى مفهوم "العلم في القرآن الكريم نجد أنه ثلاثة علوم متكاملة في وحدة أساسها النبأ الصادق، أو الخبر الصادق.

فأولاً : علم الدين، وهو النبأ الصادق عن الله.. يقول الله مخاطبًا رسول الله "ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم" أي من علم الدين ومنه علم الغيب والشرع..

ثانيًا: علم التاريخ ، وهو النبأ الصادق من الله عن السنن التي تحكم الإنسان والأمم في مسار الحياة والتاريخ.. وفي ذلك يقول الله "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود....." .. ومن هذا النبأ قصص الله الحق عن هذه الأمم.

ثالثًا: علم الأشياء، وهو النبأ الصادق عن المادة والطبيعة وقوانينها.. يقول الله عن العلم بهذا المعنى "يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا....." ويقول من قوانين هذا العالم "وجعلنا من الماء كل شيء حي"..

من كل هذا يستقر لدينا اليوم –كما مستقرًا عند العرب الأوائل من قبل – أن معنى القصص هو تتبع للواقع بالصدق، والبيان عنه بالحق مقدمًا أخباره وأنباءه وعظاته في مجال ضوابطه التي لا يخطئها الحسي العلمي، واليقين الديني، وتأكيد الثبات مع التغير والاستحداث لحقائق الحياة والإيمان..

على العكس من ذلك، وبالرجوع إلى جذور أنواع القصص الأوربية في اليونانية واللاتينية القديمتين نجد أن الجذر الأصل لجميع القصص والحكايات وحتى الأخبار التاريخية المفروض فيها الصدق ترجع إلى

الكلمة اليونانية Hisyotia ومعناه "خرافة" ، فالجذر اللغوي لجميع أنواع القصص وحتى كتابة التاريخ هو جذر واحد أساسه "الخرافة" ومعنى ذلك أنه سواء أكان القصاص ينحو البداية نحوًا خرافيًا مثل هوميروس أو نحوًا عمليًا في قص التاريخ مثل هيرودوت فالأمران عندهما عمل خرافي، كما يثبته واقع ما كتباه إلى اليوم..

وهكذا من كلمة Historia بمعنى الخرافة خرجت كلمة Story بالإنجليزية بمعنى قصة – خرافية بالطبع- وخرجت كلمة History بمعنى تاريخ.. وهو إلى اليوم كما يكتبه الأوربيون سواء على أنفسهم بالمبالغة في تعظيم الشأن، وإخفاء الجرائم، أو عن الشعوب الأخرى مثل العرب بالتلفيق والطعن والطمس.. هو تاريخ خرافة .. هذا بينما اختصر الفرنسيون المشكلة فأخذوا من كلمة Historia كلمتهم Histoire بمعنى التاريخ والقصة الخرافية معًا، وبذلك يثبت تعادلهما في الخرافة والتلفيق..

ومن كلمة Historia التي تدل في اليونانية على نوع من الخرافات المخمرة والمعقدة والتهويليه مما لا يستطيع أن يصاب بمثله العقل العربي – وضع العرب الدلالة في لغتهم على مثل هذه التهاويل والأكذوبات المعقدة بتعريب نفس الكلمة اليونانية وهي كلمة "الأساطير" التي أصبحت في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم، دلالة على ما لا يمكن تصديقه لفقدان الصواب والقصد في روايته..

والأساطير هنا كما عربها العرب، ولم يعرفوها، ليست من مادة "سطر وتسطير" فهذه الكلمة "سطر" كلمة عربية أصيلة تعني "التنظيم" ومنها كلمة السيطرة ، ومنها أيضًا والسطر والسطور في نظام الكتابة

التي عرفها العرب بشكلها الذي وصل إلينا بعد تحسينه قبل الإسلام ببضعة قرون على الأقل..

ومن أمثال الجذور لمعاني الخرافة والتلفيق في اللغات الأوربية نجد أن كلمة Fiction ومعناها بالإنجليزية قصة خيالية أو رواية وهمية ترجع أصلها في اللغة اللاتينية القديمة Fingo ومعناها يخترع أو يلفق. وإن كلمة Novel ومعناها رواية مستطرقة ترجع إلى اللاتينية القديمة في كلمة Novum ومعناها النادر والمثير، ثم نجد أخيراً كلمة Play التي تعني التمثيل والتشخيص والعزف.. كما تعني "اللعب" الذي يشير بكل دلالاته في مفهوم الفن المسرحي إلى عبث ولهو اليونان في ليالي العربدة والخمر والانطلاق الجنسي احتفالاً بإلههم الوثني .. إله الخمر والربيع والخصب والعبث ديونيسيوس أوباخوس – الذي زرع لهم مع الكروم- كما زرع لأوروبا معهم – غابة المسرح الشبحية الأسطورية، التي استهوتهم تهاويلها، وأظلمهم ظلامها، طوال عصورهم الأولى المظلمة، والوسطى الأشد ظلامًا، حتى أدركتهم شمس العرب بالإسلام، فخرجوا به يهرعون نحو حياة جديدة يلتمسونها بقدر من الحس العلمي – إن استطاعوا – في عصرهم الحديث...!

الفصل الثالث

الدلالة الحضارية للشعر الجاهلي في حياة وتاريخ العرب

شباب الأمم:

لم يكن ظهور الإسلام الذي اعتبره العالم الأوروبي حدثًا مفاجئًا- إلا ثمرة انتصار الخصائص الإنسانية والأخلاقية التي أعدت لظهوره في سلوك ومعتقدات وآداب وتراث الأمة العربية التي نهضت به في قلب الجزيرة، في هذه الأمة التي دار محور وجودها حول حركة حياتها الطبيعية الأفقية عبر المساحات الشاسعة في معسكرات ظعنها وإقامتها، ثم باتجاه هذه الإنابة السنوية إلى بيت الله في مكة حيث يصدع دعاؤها من خلال مناسك الحج عموديًا إلى الله، ليبقى ويتحدد أملها بعد وصايا إبراهيم وإسماعيل في رسول يظهر من بينها بكتاب وشريعة إليها..

ولم يكن هذا الدين الحق الذي انبثق به الإسلام، وأشرقت به اللغة العربية على أفق العالم، بكل كمالها ومرونتها وثروتها في القرآن – دينًا بسيطًا يتعلق ظهوره فقط بشخصية النبي القوية الكاملة وسط أخلاط من البدائيين والنهابين والجهلة الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، كما حاولت الشعوبية والمستشرقة أن يختلفوا ويؤكدوا هذه القرية بكثير من المغالطات والتدليسات – ذلك أن الإسلام بالنظرة الشاملة للتاريخ الديني هو ذروة النضج والكمال لجميع مقومات الدين الحق في جميع رسالات الرسل السابقين، وهي المقومات التي تهيأ لها هذا النضج والإعداد في وطن هذا الدين، وحول مركز القبلة فيه وهو بيت الله، سواء في البشر، أو اللغة، أو التراث، أو حضور الزمان الملائم محليًا وعالميًا لتقبل هذا الانتصار المنتظر للإسلام..

بتوفر هذه المقومات ظهر النبي المصطفى في موعده، وبين قومه الذين دانوا بعد أعوام بدعوته، وآمنوا معه بما جاء به، وآزروه ونصروه وعزروه

ليقوم بهم حول جهاده بالقرآن مجتمع المؤمنين الأول .. المجتمع الكامل التماسك بالإيمان، والصادق العمل بالشريعة، والحر الإرادة بالسواسية، والواضح الطرق إلى العمران والحضارة بالأمانة والعلم، وبالنظرة الإنسانية والسلام..

لقد كان ظهور الإسلام في موعد الترقب لهذه الدعوة الخاتمة للدعوات، وبعد الإعداد الطويل والمتصاعد في معترك حياة الشعوب العدنانية والقحطانية وقبائلها، سلمًا وحربًا، وخصبًا وجدبًا، وتدافعًا بالكلمة، وتنمية للحقيقة، هو إشراقة الرشد والتمام في تاريخ هذه الأمة العربية، وقمة الانتصار والتحقق لهجرة ودعاء وجهاد إبراهيم وإسماعيل فيما وضعاه منذ نحو 2000ق.م مع بذور هذه الدعوة وقواعدها "بواد غير ذي زرع" عند مكة، وحول بيت الله الأول، الذي يسيطر على جميع الطرق الحاكمة والمستقبلة لبوادي الجزيرة وأطرافها وما وراءها، وحيث لا يمكن أن يظهر الملوك والكهنة أو تتخلق الأساطير والخرافة..

لقد كان ظهور الإسلام، وانبثاق رشد اللغة العربية في بيان القرآن الذي أوحاه الله بلسانها، هو لحظة الكمال في نمو هذه الخصائص الإنسانية والدينية التي استوعبتها اللغة العربية في عبابها الزاخر، مرحلة بعد مرحلة ، وأمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وهي تعرض نفسها في تطورها وتدافعها وتسابقها على مدى الزمان الطول من إبراهيم، وقبل إبراهيم، باتجاه هذه الغاية العظمة، والآية الكبرى، بظهور الإسلام، ونزول القرآن، وتحقق مثال الإنسان الكامل، والأسرة في حياة وسلوك النبي محمد الذي يحمل اسمه قبل مولده، ومنذ مولده، وبعد مولده، هذا المعنى الفريد بالحمد في اسم بشر، هو في نفس الوقت رمز المجتمع المنتظر المحمود..

لم يكن هناك انقطاع إذن في هذه المسيرة العربية الطويلة نحو الإسلام في المراحل المتواصلة والمتنامية التي نمت بها اللغة العربية من خلال الواقع وأحداثه الجادة المبينة من فم لفم، ومن عقل لعقل، والتي كان نماؤها وتدفقها هو التعبير الحي والأبقى لنماء واصطفاء الناطقين بها بين أكرم الأصلاب وأطهر الأرحام، ليظهر في نهاية المسيرة، وحول بيت الله، وفي طليعة هذا الحج الأكبر بظهور الدين وإشراق القرآن – جيل النبي المحمود، وفي طليعته هذا النبي المحمد، المصطفى بين أصحابه من أكرم أكرم الأصلاب، وأطهر اطهر الأرحام..

ومنذ ذلك التاريخ، ومع بلوغ الغاية بالإسلام، لم يظهر بين المسلمين الأوائل، ولا فيمن بعدهم حتى العصر الأموي، من لم يحفظ بالفخر تاريخ هذه المراحل الطويلة من كفاح الأمة العربية قبل الإسلام، أو نهى عن ديوان آدابها في شعرها الخالد الذي يعكس بكل فطرة اللسان العربي وشمول نظرته تلك الحياة الحافلة بالمآثر، والمنطلقة حول المعروف، والمذعنة في أموالها ومآثرها بالحقوق لأهل الحقوق، والمؤمنة فيما فوق الغفلات بالله الحق، إلهًا واحدًا خالقًا، عزيزًا عليمًا، يحج إلى بيته، ويضرع إليه، ولا تنعقد اليمين البارة إلا قسمًا باسمه العظيم..

فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يمنع من رواية الشعر إلى ما دعا إلى عصبية، أو نبه إلى ثارات قديمة قبل الإسلام، الأمر الذي كان اليهود في المدينة حريصين عليه لفك الوحدة التي جاء بها الإسلام، وزعزعة الألفة التي ألف بها بالإيمان والقرآن قلوب العرب. بل لقد كان النبي يتمثل بالشعر الحسن، وكان يستمع إليه، ولم يمنع أن يكون له شعراء يردون عنه مثل حسان بن ثابت.

ففي غزوة الخندق تمثل عليه الصلاة والسلام بشعر الحصين بن الحمام المرى في حكمه قوله عن تقدميه الإنسان الحر المؤمن، بينما كان يشارك أصحابه حفر الخندق لتحصين المدينة، وذلك حيث يقول:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة غير أن أتقدما
فليس على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومن الثابت المعروف أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يحسن قول الشعر، وأن النبي لم يحب له أن يهجو قريشًا ويرد على من يهجو النبي من شعرائهم حتى يستبقى إنابة أهل الرأي من قومه، ولكن عليًا رضي الله عنه قال قصيدته بعد يوم بدر يمدح النبي، ويحمد بلاء المسلمين الغضاب للحق، وذلك حيث يقول:

فأمسى رسول الله قد عز نصره وكان رسول الله أرسل بالعدل

وفي هذا الشعر الذي هجا فيه المشركين لم ينس أن يرثى قتلاهم أيضًا، وهو أعلم بمآثرهم، فقال وهو ينسب إليهم أشرف ما يوصف به الإنسان العربي من الشجاعة والكرم:

ثوى منهم في بئر بدر عصابة ذوي نجدات في الحروب وفي المحل

فلم يعاتبه النبي في شيء من ذلك وهو الذي يقول عن الشعر "هو ديوان العرب" ويقول "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا"..

ويكفي أن نذكر هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد جرى على لسانه رجز من الشعر في مثل قوله يوم أحد:

أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب

وقوله وقد دميت أصبعه:

هـــل أنـــت إلا أصـــبع دميـــت وفي ســـبيل الله مـــا لقيـــت

وحسبنا كذلك أن نذكر أن أبا بكر رضي الله عنه كان أحفظ الناس للأنساب، وأن عمر رضي الله عنه كان يحسن الاستماع إلى الشعر الحسن، وكان يقول في وصاياه " رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر" وأن المهاجرين والأنصار كانوا في مجلس عثمان بن عفان في المدينة يتذكرون مآثر العرب في أشعارها وآثرها لا في عصبيتها وثاراتها..

ولهذا فقد ظل الشعر الجاهلي – كما يسمى- هو موضع الدراسة الطويلة والعناية البالغة في العصر الإسلامي الأول، من أجل فهم أسرار اللغة العربية، وتوصلا إلى فهم القرآن وتفسيره بالنسبة للشعوب المستعربة التي دخلت في الإسلام.. كما أنه كان وسيبقى بعد القرآن والحديث أفضل ما تدارسه المسلمون لتعزيز فهمهم وتدبرهم للقرآن والحديث، وردًا على مطاعن وتشويهات المستشرقين، الذي اتخذوا من هذا الشعر مجالاً لاختراع النظريات الملتوية، أو المقلوبة ، أو القاصرة حول حياة العرب وظهور الإسلام، تأكيداً لتفوق الغرب اليوناني، وانتصاراً لأوروبا الاستعمارية التي تخشى لأكثر من سبب صحوة العرب بإسلامهم ولغتهم ومواردهم.. ومن أجل ذلك زرعوا الكيان الإسرائيلي على أرض العرب..

لقد كان الشعر الجاهلي إذن هو وثيقة الحياة العربية قبل الإسلام، المتضمنة جميع خصائص العرب اللغوية والتقدمية والدينية، التي كانت ولا تزال هي عناصر شباب الأمة العربية الدائم، والتي بلغت ذروة كمالها وقوة برهانها بظهور الإسلام. .

ولسنا نعتقد صواب الذي فصلوا فصلاً معتمداً- من الشعوبية وأعوانهم – بين مراحل الحياة العربية قبل الإسلام، كما أنبأت بذلك لغة الوحي على لسان إبراهيم، وكما تنبئنا إلى اليوم هذه القوانين التي يتاح اكتشافها يوماً بعد يوم – في حكمة الخالق – من علوم الإنسان التي تجعله في أقرب ما تدل عليه لغته ومعتقداته هو ابن بيئته، والحصيلة الحية لتفاعل قوانينه مع قوانين الطبيعة المحيطة به..

كما أننا لا نعتقد صواب من وصلوا بمفهوم وثني بين أسباب ظهور الوحدانية الخالصة في جزيرة العرب وبين حياتهم المفتوحة على الطبيعة الصحراوية ذات المناظر الموحدة، والمتكررة بالصورة التي رسمها مثل رينان في كتابه " تاريخ اللغات السامية" والتي بلغ بها انحرافه رغم ذكاء نظرته – حدًا يرى فيه – أن اليونان من أجداده الوثنيين كانوا أبعد نظرًا، وأوسع خيالاً في النظر إلى " الإلوهية" ولهذا فإنهم عددوها بتأليه كل ما نظروا إليه، وذهلوا في سذاجتهم أمامه، وهم في ذلك قد تجاوزوا عبادة ظواهر الطبيعة من النهار "زيوس" ومن الزمن "كرونوس" إلى عبادة عناصر الطبيعة نفسها تحت عناوين الحكمة والحب والحرب والجمال والخصب والخمر ونسبوها إلى أسماء الكواكب والشمس، ثم مضوا يضمون إلى موسوعة آلهتهم فلم يتركوا شيئًا من عناصر الطبيعة وأرواحها حتى الأزهار والحشرات والديدان!!

فبمثل هذه الغباوة الهيلينية ينتهي رينان إلى تعظيم الكثرة من الآلهة التي يفهمها بتأثير سجوده للتمثال والصورة والأيقونة، ليصل إلى ما هو هدف استشراقه ودراسته للغات السامية، وهو تهوينه من أن العرب، وعقلهم، وإلههم الواحد الأكبر، رغم دلالة لسانهم "على هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جديد في الجنس البشري" كما يقول عن اللغة العربية في

كتابه المشار إليه، ورغم أنهم وهم يرون الواقع بمقياس واحد هو الصدق العلمي، فقد رأوه في ملايين الصور التي أدركوها وسجلوها ولم يدركها غيرهم عندما جعلوا للشيء الواحد مئات الأسماء التي تدل عليه في جميع حالاته المتنوعة. .

إن رينان بغبائه الهيليني اللاصق بجلده فكره لم يستطع أن يعقد هذه المقارنة البدهية التي تكشف له عن مصدر لغة وفكر الإنسان الاوروبي الهندي اليوناني ومصدر تفكير الإنسان العربي، والتي هي في حدود نظرته إلى أثر الطبيعة على كل من العرب واليونان لابد أن تفرض هذه المقارنة بين إنسان جليدي يجلس أكثر من أشهر السنة مختبئًا وراء الجدران بجوار المدفأة، محاصرًا بالثلوج والبرد والجوع والاكتئاب، ولا سلوى له إلا في طعامه المخزون، وخمر الأقبية، وصناعة الأفكار التي يتخيلها ويلاحقها في أعماقه بطريق غير مباشر.. طريق منفصم عن الوجود الذي يفكر فيه.. الوجود الذي غاب وراء جدرانه، وهو مع ذلك يحاصره، ويطبق عليه، ويتناقض مع حاجته.. وبين إنسان آخر كالذي نعرفه، وتحدثنا عنه.. إنسان عربي شمسي، يعيش بين الآفاق، على أرض هي أوسع الأرض.. وتحت سماء تبدو بالنسبة لأية سماء أخرى أعلى سماء، وأصفى سماء.. إنسان موجود بالفعل في قلب الوجود.. وأمام الوجود .. ومع الوجود .. وإذا سمع قول الله له لينهه من بعض غفلاته "قل سيروا في الأرض فانظروا".. فمن هو الذي يسير غيره.. بل من هو الذي سمع قول الله، وتدبره، ونقله بعد تجربته ونجاحه إلى الآخرين .. غيره؟!

لم يكن عجبًا إلا عند رينان – ورفاقه – أن يؤمن هذا الإنسان العربي الشمسي بالإله الواحد الحق، فيكون إيمان هذا هو دلالة الرشد حيث أنه عبد الله ولم يعبد الشمس، لأنه في حركته وشهوده لقوانين

الحركة في الخلق عرف أن الشمس – كما عرف إبراهيم – تغيب وتأهل .. وأن الله الذي هو الحق الذي يغيب أبدًا ولا يأفل .. هذا بينما تصور ذلك الإنساني اليوناني الروماني – في أقل حماقاته وجهالاته – أن لهذه المدفأة التي يحاصره الشتاء بجوارها إلها يرجى نفعة، بل إلهة رفيقة به من بقايا عبادة أجداده الآربين للنار في فارس، إلهة يلزمه أن يتقرب بالطقوس إليها وهي "فستا" إلهة نار الموقد التي لا تنطفئ، ورمز حياة البيت والأسرة ، داخل حصار الطبيعة، والمهدهدة على مخاوف أصحاب البيت ومن فيه، فترة هذا القبر الشتوي، والاستبطان التأملي، داخل النفس الداخلة في نفسها – على طريقة البوجا الهندية – متفلتة من قيد العقل، ومستسلمة لا سار الخوف والعزلة والظلام!

فكيف يمكن أن يكون حرًا ورشدًا هذا الإنسان العابد لإلهة المدفأة "فستا".. الإنسان الذي عاش يرى في آلهة النار الشتوية رمزًا وعلمًا على خلود روما – كما يقول تشارلزورث في كتابه "الإمبراطورية الرومانية" لأن روما بغير المدافئ، والطقوس إلى آلهتها، تموت من البرد، ومن أجل ذلك نسى المواطن الروماني الذي عبد الإمبراطور أيضًا، وحمل مذلة مظالمة، وقهر أحكامه وقوانينه ونزواته، أنه بهذه الآلهة التي كان يشجع الأباطرة الأذكياء مثل "ماركوس أوريليوس" على عبادتها – إنما يموت كل يوم من الاغتراب عن الحقيقة، ومن الضياع تحت أقدام الجبابرة، وهو لا يدري في عظمة روما الكاذبة والطاغية أنه في "موقد" مظالمها إنما هو بعض ما يحترق، ليظل الإمبراطور الطاغية رافعًا سيفه، وتبقى روما الظالمة قاهرة العالم!

وكيف يبلغ الغباء الهيليني بعقل رينان أن يسوي في الإدراك بين عابد فستا إلهة المدفأة، المختبئ والمتحجر تحت ووراء الجليد والظلمة – وبين هذا

الإنسان الحر الطليق، الذي واجه أهوال طبيعته فوق البداء، وتحت الشمس، فلم ينكص، ولم يتذمر، ولم ينهزم، ولم يلق سلاح إرادته، أو ينزل عن حق إنسانيته، او يغتصب حق غيره من هذه الحرية الإنسانية ولم يعبد إلا الله .. بغير أباطرة وكهان، أو طقوس وأساطير..

هذا الإنسان الذي قرأ له رينان قوله على لسان زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

ومع ذلك فقد بقى لرينان من فضل ذكائه وإنصافه تشبثه بملاحظاته الصحيحة حول اللغة العربية فهو الذي يقول في شباب هذه اللغة، وانتظام سمائها بغير شيخوخة تطرأ على حيويتها وقوانينها: "إن التوافق الذي تقيمه خصائص اللغة العربية بين هذه اللغة قبل الإسلام وبين العربية التي يتحدث بها العرب اليوم لهم توافق يدعو إلى العجب حقًا".

ونحن قد عشنا والحمد لله بعد قرن من هذا الكلام لنقول لرينان، وتلامذة رأيه، ونقول لأنفسنا قبل هذا وهؤلاء: "إن حيوية اللغة – التي لم تنقرض منذ آلاف السنين إلى اليوم – هو في توجه هذه الخصائص داخل تركيبها الطبيعي، للدلالة على الله، والإشارة إليه والتذكير به، والعبور بهذه الدلالة مؤصلة في تراث العرب، وسلوكهم، وأنماط حياتهم وشريعة دينهم، وعصمة كتابهم، إلى أقصى ما يتاح للحق والدعوة إليه، أن يعيش في أمة لا تزال باقية على هذه الأرض"..

ومن أجل ذلك، ففي الصفحات القليلة الآتية نقدم مختارات من الشعر الجاهلي للدلالة على قيام هذه الحياة العربية الدينية من جذورها على الصدق العلمي، الذي لا يستند إلى مجرد النصوص المكتوبة، وإنما إلى صحة الرواية، وصحة السند لها، كأساس علمي يجري مجرى نقاء

الأنساب – لنقل حقائق التراث: وعلوم الآباء إلى الأبناء وسنحاول أن نشير في هذه المختارات القليلة إلى اتساع مجال الثقافة الإنسانية والدينية في حياة العرب قبل الإسلام حول نفس الدعائم التي جاء الإسلام فنقاها، وأرساها، وربطها إلى كتاب وشرح لا يبليان أبد الدهر.

ونحن بهذه الدلالات في الشعر الجاهلي على رسوخ الإيمان بالله في حياة العرب الأولى، وعلى تأصل عناصره من الحرية والمساواة ومقاسمة الأموال والصدق والحمد والسلام النفسي – نعيد إلى الأذهان وصية عمر بن الخطاب إلى المسلمين في قوله : لن تعرفوا الإسلام حتى تعرفوا الجاهلية " أي حتى تعرفوا مآثرها التي قامت على لسانها وأخلاقها، وحفاظها حول بيت الله، وتتبينوا أن الإسلام قام بتخليص هذه المآثر ، من العصبية والمثالب والغفلات التي كادت بدلالة حرب أبرهة لحساب – أن تعصف بأي أمل في وحدة العرب على دينها ولغتها وأخلاقها، لولا فضل الله ووعده لإبراهيم ورحمته للعالمين..

الله بصفاته:

عرف العرب الله الحق قبل الإسلام، وفي مرحلة التهيؤ لظهور الإسلام.. عرفوا الله الحق بنفسه وصفاته.. رب البيت .. رب الحل والحرام.. الله بصفاته وقدرته، وخلقه وتدبيره.. رب إبراهيم وإسماعيل.. رب موسى والمسيح والنبيين والمرسلين .. ورب محمد ذي الخلق العظيم..

يقول زيد بن عمرو بن نفيل قبيل البعثة وهو يستعيذ برب إبراهيم ويتعبد له وحده:

عذت بمن عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم

ويقول ورقة بن نوفل وهو يدين لله الحق لا إله غيره:

أديـــن لـــرب يســـتجيب ولا أرى أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

ويقول أمية بن أبي الصلت:

إلـــه العـــالمين وكـــل أرض ورب الراســيات مــن الجبـــال

ويقول لبيد ينكر علم الغيب على غير الله:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

ويقول امرؤ القيس وهو يذكر الرحمن منزل الغيث:

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روي بها من محول الأرض أيباس

ويقول عنترة وهو يرد الأمر لله ولا يرى منه مناصًا:

إذا كان أمر الله أمراً يقدر فكيف يفر المرء منه ويحذر

ويقول وهو يرجع بالنواهي والأوامر إلى الله:

وها قد رحلت اليوم عنهم وأمرنا إلى من له في خلقه النهي والأمر

ويقول في أقرب صفات الله إلى الإنسان بالحياة والموت:

قســماً بالــذي أمــات وأحيــا أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

ويقول حاتم معلناً عن شيوع الإيمان بالبعث:

أما والذي لا يعلم السر غيره ويحيى العظام البيض وهي رميم

ويقول عامر بن الطفيل في التسليم بقضاء الله:

قضى الله في بعض المكاره للفتى برشد وفي بعض الهدى ما يحاذر

ويقول سويد بن أبي كاهل البشكري بحمد الرحمن على ما منح قومه من سعة الأخلاق والفضل:

كتب الرحمن والحمد لله ... سعة الأخلاق فينا والضلع
وإباء للدنيات إذا ... أعطى المكثور ضيماً فكنع
وبناء للمعالي إنما ... يرفع الله ومن شاء وضع
نعم لله فينا ربها ... وصنيع الله والله صنع

ويقول ذو الإصبع العدواني في صفة الله بالقابض والباسط وهما من أسمائه الحسنى:

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها ... إن كان أغناك عني سوف يغنيني

هذا وفي جميع مجالات الشعر الأخرى تتأكد دلالاته بين العرب على عبادة الله الحق مصدراً لكل المبادئ الأساسية لمجتمع الحرية والمساواة والمقاسمة والمشاركة في الأموال، الذي حاولوا بناءه رغم كل الشوائب كما دعا إليه الإسلام، وكما توقعوا أن يدعوهم إليه، ويطهرهم به، رسول من أنفسهم ، ينزل عليه كتاب إليهم...

المقاسمة في الأموال:

ومقاسمة العرب في الجاهلية إخوانهم في أموالهم، متنافسين فيما بينهم على خلط فقرائهم بأغنيائهم، ومدركين بهذا التنافس أن هذا الإيثار هو عمود الفضل، والصفة المكملة لإنسانية الإنسان بعد الحرية المنتزعة ببذل النفس – هي التي كانت الأرض الصلبة، والعقيدة الاجتماعية الجلية التي أرسى عليها الإسلام صرح حقوق الأموال بالزكاة، والإنفاق المتصل لكل أصحاب الحقوق كما حددهم القرآن الكريم، وهي كما تقدمها دلالات الشعر في الجاهلية أروع ما سجله مجتمع حر من آيات الاشتراكية

الطوعية العملية والعلمية، مصطبغة بصبغة الإيمان والأخلاق والحب، قبل أن يصبح ذلك شريعة بالإسلام.

يقول عمرو بن الإطنابة الخزرجي وفيه ارتباط هذه المقاسمة للأموال بين الأغنياء والفقراء بوازع الإيمان بالله، وباعتقاد أن هذه الحقوق هي حقوق الله لهؤلاء الأخوة المتساوين معهم، وأن هذه المقاسمة هي تصحيح دائم لمعادلة المساواة في الأموال بين من يملك ومن لا يملك، أو بين من يملك الأكثر ومن يملك الأقل، وهي أصدق في التعبير عن المعنى الإنساني الاجتماعي من كلمة الاشتراكية المعاصرة.. يقول عمرو:

إني من القوم الذي إذا انتدوا ... بدأوا بحق الله ثم النائل
المانعين من الخنا جاراتهم ... والحاشدين على طعام النازل
والخالطين غنيهم بفقيرهم ... والباذلين عطاءهم للسائل

ويقول عروة بن الورد وكان يغزو الأغنياء ليقسم ما يناله منهم على الفقراء والضعفاء ويؤثر على نفسه في أروع صور المقاسمة والمشاركة، مع توجيه النقد المر لرجل شحيح لا يشاركه في ماله أحد، ومع تسميته هذه المشاركة باسمها كما عرفها العرب والمسلمون قبل غيرهم بزمن بعيد:

وإني امرؤ عافي انائي شركة ... وأنت امرؤ عافي انائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بجسمي مس الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

ويقول حاتم شيخ الاشتراكيين الطوعيين بنزعة اجتماعية واعية ومستقرة على الإيمان:

إذا كان بعض المال ربا لأهله ... فإني بحمد الله ما لي معبَدُ
يفك به العاني ويؤكل طيبا ... ويعطي إذا ضن البخيل المصرد

ويقول في المخالطة والمقاسمة أيضًا:

الخـــالطين نحيـــتهم بنضـــارهم وذوي الغنــى مـنهم بـذي الفقـر

ويقول فيما يجري عليه من الفقر والغنى فهو ليس رأسماليًا وليس مع بذله المال بعيدًا عن شرف القتال عن الحرمات والحقوق:

وإنـي لعـف الفقـر مشـترك الغنـى وتــارك شــكل لا يوافقــه شــكلي
ولـي مـع بـذل المـال والمجـد صـولة إذا الحرب أبدت عن نواجذها العصل

ويقول وهو يوقد النار على المرتفعات حول بيته في الشتاء ليراها العابر والضال في الظلمة من بعيد فيقبل ليأوي إليه، حتى لا يضيره البرد القارص والجوع.. ويعد غلامه بالعتق إن جلبت ناره ضيفًا يقوم بحقه:

أوقــد فــإن الليــل ليــل قــر والــريح يــا غــلام ريــح صــر
لعــــل أن يبصـــــرها المعـــــتر إن جلبــت ضــيفًا فأنــت حــر

وتقـول أم حـاتم في حماسـة العطـاء وفي تـأميم أموالهـا بيـدها لـذوي الحاجة إليها، وهي تفسـر هـذه الاشـتراكية الطوعية وتـرد علـى لائميهـا في الإسراف وأولهم أخوها:

لعمري لقدمًا عضنى الجوع عضة فآليـت أن لا امنـع الـدهر جائعـاً
ومـــا إن تـــرون اليـــوم إلا طبيعـــة فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا

ويقـول زهـير بـن أبـي سـلمى في وصـف مـن يمـدحهم بالتسـابق في البـذل قولاً وفعلاً:

وفـيهم مقامـات حسـان وجـوهم وأنديـة ينتابهـا القـول والفعـل
على مكثريهم رزق من يعتفيهم وعنـد المقلـين السـماحة والبـذل

وهكذا تصبح هذه المقاسمة ديناً وطبيعة لكل من المكثرين والمقلين.. فالجميع يعطي ويبذل بقدر ما يريده.. وهم بهذا التسابق، مع بشاشة الوجوه، لا يكلفون الذين لا يملكون مشقة السؤال، لأنهم يسبقون إلى عطائهم ما هو حق لهم..

شعر الطبيعة:

هذا الدين العملي، والإيمان بالله الحق، وهذه المقاسمة في الأموال، والمشاركة في المملوكات وهي ظاهرة الدين الحق – هما بدورهما ثمرة هذه الحياة الصحيحة فوق طبيعة غامرة الأضواء، فسيحة الأرجاء، يتدافع عليها الأمن والخوف، والخصب والجذب، والسلم والحرب، ولا سبيل فيها للحياة إلا لم يبذلون حياتهم على طوق المخاطر من أجل الحرية وسعيًا متصلاً من أجل العيش الكريم: آخره كرامًا.. حتى وإن حملوا السيوف يقومون بها المعوج من بينهم، حبالاً حقدًا، ودفعًا للظلم لا صراعًا..

فالطبيعة الكاملة بمشاهدها الكونية .. السماوية والأرضية .. حيث قوام الحياة الرعوية والتجارية يفرض على هذا المتبدى المنتج ثلاث خصال فيهن الدين والعلم والبيان، فهو يتحرك فيرى ويتفكر، وهو يتفكر فيعلم ويؤمن، وهو يؤمن فيتكلم ويبين، وهذه الخصال الأساسية من الحركة والإيمان والبيان فرضتها ثلاث مراحل ثابتة أمام هذا البدوي بين مشاهد الكون العمودية والأفقية والمتكاملة وجعلتها منبع حياته الأساسية.. حياته التي كان يستخف به من أجلها الأكاسرة والقياصرة، فاليوم جاء العلم الحديث ليغبطه عليها، ويضعه بها في قمة من أحسنوا انتقاء غذائهم بالغذاء الذي هو الآن مقياس حضارة الشعوب الغنية.. فمن سقوط المطر من السماء عموديًا ينبت العشب، ومن رعى الأنعام هذا العشب رأسًا قدر الأنعام اللبن "من بين فرث ودم لبنًا سائغًا للشاربين" واللبن كما استطاعوا

أن يفهموا في العصر الحديث هو "الغذاء الكامل" أو هو "هبة السماء".. وللأبقار اليوم قصور دافئة في أوروبا تعيش بها في المدن الشيوعية، أو مراع واسعة تدار بأحدث الطرق العلمية في مناخ أمريكا الدافئ.. ولن نفهم الإسلام – والعصر الحديث أيضًا – حتى نعرف الجاهلية..!

يقول إيا من بن قبيصة الطائي في الرحلة الدائبة واتساع بحالها مهما كانت المشقات:

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة فهل تعجز في بقعة من بقاعها

ويقول عبد يغوث بن صلاءة في كونه يضرب في متاهات الصحراء إلى حيث لا يستطيع حي أن يعيش، ويعتبر ذلك مع الكرم من مفاخره:

وقد كنت نحار الجزور ومعمل المطي وأمضي حيث لا حي ماضيا

ويقول ربيع بن مقروم في صورة من صور الطبيعة التي ينقذف فيها الإنسان والهلاك معًا:

في مهمة قذف يخشى الهلاك به أصداؤه ماتني بالليل تغريدا

ويقول تأبط شرًا في أنسه وحيدًا بالأرض الموحشة حيث لا هادي له على طرقها إلا الشمس والنجوم:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ويقول أعشى بأهله بصف ألفته إلى اقتحام البوادي التي لا حياة فيها لإنسان، ولا أثر بها إلا للجن:

يمشي بيداء لا يمشى بها أحد ولا يحس خلا الحاف بها أثر

ويقول امرؤ القيس في أشهر المعلقات التي كتبها العرب وعلقوها مع غيرها من أروع الشعر الوصفي على أقدس مكان وهو الكعبة، بما اجتمع في نظمها من صور الطبيعة الغنية بالحركة والعنفوان، وبالجمال والتجدد، دلالة في بيت الله على مصدر ثقافة لسانهم، والهداية إلى عناصر إيمانهم، والسبيل الذي قطعوه إلى معروفهم ومآثرهم.. إنه يقول:

وليل كمَوج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بجوزه ... وأردف أعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصابها ... بأمراس كتان إلى صم جندل

ثم ينتقل ليصف قيامه بالبكور، على صهوة جواده الذي يذكره في حديث مشهور رسم له صورته الحية، وهو يتحرك طوع يده في كل الاتجاهات، فكأنك لازلت تراه منقذفا كصخرة ألقي بها في سيل من أعلى جبل:

وقد أغتدى والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معًا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وبعد أن يستوفى وصف الجواد ينتقل إلى وصف المطر، وهو أحب منظر في الطبيعة للبدوي، أو هو عنده المشهد الكبير، معانًا بهذا التنقل في الوصف لمن لا يفهمون أن القصيدة العربية كما يتحرك فيها الإنسان الحي داخل حركة واقعة الحي ليست تمثالاً حجريًا أصم ينحته الشاعر، وليست تشييدًا لأجزاء من أكفار مصطنعة لها انعكاس صادق في الواقع، وعلى هذا فالقصيدة العربية هي التي تملك دون القصة الخيالية أو

المسرحية أصدق وحدة لبناء تعبيري يعكس الواقع حيًا كما ينقل صورته، ومعنى هذا أن أي جزء من أجزاء القصيدة العربية يحمل مثل القصيدة كلها دلالته الدائمة على الأصل المنتزع منه، والعائد إليه، وهو السكون والطبيعة والخالق، من خلال المواقف المختلفة للشاعر الذي يقرر هذه الحقيقة بما لا حصر له من الصور التعبيرية المتجددة النابضة بالحياة، والمؤثرة بإيقاعها على حس السامع، وخيال القارئ، وهي تضعه في قلب هذه المواقف كأنه يعيشها..

هذه الوحدة المتحققة للقصيدة العربية، كوحدة أجزاء وأعضاء الكائن الحي في دلالتها عليه، لا تتحقق للأعمال القصصية الخيالية في الأدب الأوربي شعرًا أو نثرًا إلا على أساس وحدة التشييد لبناء كل من أجزاء لا قيمة لها إذا انفصلت عن الكل، وليس لهذا البناء من معنى الوحدة إلا انسجام التركيب بحسب رسم أو تصميم هدفه النهائي في عقل الشاعر أو المؤلف لا يمكن فهمه او كشفه إلا بوجود الأجزاء كلها في مواضعها، كما صممها لبناء القصة أو القصيدة، التي هي تعبيره عن موقف له في مواجهة الطبيعة، وليس تعبيرًا عن وحدة واقعة هو مع واقع الطبيعة، مهما تعددت المواقف.. ولا شك أن هذه نقطة خلاف بين الأدب العربي الديني والأدب الأوروبي الوثني، تبلغ – مع أنهما موقفان متسقان تمامًا في واقع المجتمع البشري – حد التناقض الذي يصل بينهما إلى مستوى المواجهة.

يقول امرؤ القيس في وصف نزول المطر في معلقته:

أصاح ترى برقًا أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب   أهان السليط بالذبال المفتل

أي انتبه صاحبي إلى هذا البرق الذي يومض كاستراق النظر بين سحاب يبرق ويضحك وهو نحو بعضه إلى جوار بعض، فيضيء سناه، كأنما راهب قد ضاعف الزيت لذبالات مصابيحه داخل صومعته فتوهجت مجتمعة توهجًا شديدًا.. هذه الصورة في كلماتها الموجزة جدًا، لا تزال في كمال تعبيرها تنقل إليها ذلك المشهد الذي صوره الشاعر حيًا، ونابضًا بالحياة، وهو يعكس في غير إطالة وبإمتاع شديد حياة عصر بأكمله...

الحرية والمساواة:

داخل هذه الطبيعة الحية، ومتسقًا بحركته وكلمته مع إيقاع حركتها وآياتها عاش الإنسان العربي حرًا بثمن هذه الحرية.. الثمن الذي تمثل هل في دوام الرحلة.. واهبة القتال عند المساس بحرية الرحلة، وحرية الإرادة.. وهر ثمن اقتضى منه داخل هذا الواقع المنسق، والمنضبط، أن تكون حريته وثيقة الارتباط بحرية الآخرين، وليست ثمرة لقهر الآخرين. ولهذا فقد اتسع فهمه ودفاعه عن الحرية فشمل التزامه بحقوق المساواة به، ومقاومة الضيم في كل صورة لنفسه أو لغيره، وقد سمى هذا الرفض للضيم إباه، وسماه عزة، وبذلك أفسحت الحرية بهذا المعنى الجماعي الذي تواثق عليه الجميع، ولم يتردد في أن يقاتل عنه الجميع – طريق التنافس بين الأخوة المتساوين على الفضل المتفق عليه بينهم، في المعروف الذي عرفوه واحتكموا إليه، والمنكر الذي أنكروه وتناهوا عنه..

في معنى إباء الضيم يقول الحارث بن حازة:

لا يقيم العزيز بالبلد السهل ولا ينفع الذليل النجاء

وهذا القانون النافذ لضمان الحرية بالحركة لا يمكن تطبيقه على معنى الحرية الناقص والمتقلص في أكثر المجتمعات الحضارية القديمة

والحديثة، والذي يتجلى تقلصه في المجتمعات الطبقية المعاصرة التي تعتمد كلمة الحرية فيها على نص الدساتير والقوانين، فإذا تعرض المواطن فيها لمرض "نقص الحرية" كان عليه أن يئن أنينا متواصلاً على أنغام القوانين المتنوعة حتى تلفظ حريته أنفاسها، أو يعمد في سوق الحرية التي يتم فيها تفسير وتأويل القوانين فيقايض على بعض حريته للحصول على البعض الآخر، وبذلك يتكرس الشكل الطبقي، وأما في المجتمعات الشيوعية فقد كان الانتقاص الصريح للحرية بمفهوم ملامة تعبير الإنسان عن نفسه، وعن مصيره، هو المبرر الأيديولوجي لهذه الحرية الوحيدة التي أقامها النظام الشيوعي وهي حرية : اللقمة والمسكن والأجر..؟

ويقول لبيد في نفس المعنى من امتلاك حق الحركة في الأرض الواسعة، وقدرة كسر الرتابة والخنوع والاستقرار في البلد السهل مع الضيم، مما استقرت عليه رفضه الأخلاق العربية الدينية في أبرز علامتين من علامات التاريخ الديني تحققت بها حرية الإرادة من أجل حرية تأكيد الحياة بغير قهر، وحرية إرادة البناء والعطاء، وهما هجرة إبراهيم.. وهجرة محمد.

يقول لبيد :

تراك أمسكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وتقول الخنساء من دلالة كمال المفهوم الصحيح للحرية، والسواسية، ورفض الضيم، في وعي الرجال والنساء، في تلك الحياة التي ساوت بينهما في الحقوق، وتكاملت بهما في وحدة الواجبات:

نهين النفوس وبذل النفوس يوم الكريهة أبقى لها

ويقول المتلمس وهو يرى أن الحرية الحقيقية للحركة والإرادة والفعل أغلى من الحياة:

ولا تقبلن ضيمًا مخافة ميتة ... وموتن بها حرًا وجلدك أملس
وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا ... وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

ويقول عبد قيس بن خفاف البرجمي وهو يربط الحرية بالإيمان والتقوى:

والله فائقة وأوف ينذره ... وإن حلفت مماريا فتحلل
وأترك مكان السوء لا تحلل به ... وإذا نبابك منزل فتحول

ويقول عمرو بن براقة في أسلحة الحرية الفعالة في دفع القهر والظلم:

وكيف ينام الليل من جل ماله ... حسام كلون الملح أبيض صارم
متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم

التقدمية والتدافع:

والتقدمية بمعناها القديم في حياة الجاهلية العربية لا تزال هي المعنى الأحدث والأصح في العصر الحديث، فهي في تطبيقات حياتهم كانت تعني التقدم الطليعي على رأس حركة التاريخ.. التقدم بالفعل، وليس بالقول، وفي غياب المسار الصحيح لهذه الحركة بمفهوم التأكيد الدائم للحق في حياة الإنسان وهو الإيمان والحرية والمشاركة للآخرين في المال والأمن.. فهذا المسار الذي سماه العربي الأول بالحق هو علم الإنسان الثابت. وقانونه الذي لا يتغير، وإنما يتجدد مع تغيرات العصر، من أجل أن يتأكد ثباته، وأن لا يتغير هدفه..

وأما التدافع فهو المعنى العربي الصحيح كما جاء به القرآن الكريم، لتأكيد حركة الدفاع عن الحق الثابت للإنسان بشرائع تستهدف التقويم، والتصحيح، والسبق العملي بهذا الحق إلى مجالات أبعد وأعظم في الجهد الإنساني، كهذا السبق الفريد الذي جاء به العرب المسلمون بتأكيد هذا الحق الإنساني الذي انتظمته الشريعة الإسلامية في مجالات تقدمت كل ما سبق إليه الجاهليون جماعات وأفرادًا، وتجاوزته على مشهد شمولي أمام العالم الذي أصغى وفتح عينيه على هذا المشهد الذي توحدت به كل هذه القوى العربية وروافدها المشتتة في مجرى واحد عظيم، تدفق من جزيرة العرب ليصب في كل أرجاء الأرض..

هذا التدافع الذي يعني الدفاع عن الحق الإنساني لا يعني "الصراع" من أجل الدفاع عنه بين المؤمنين به، ولكن يعني المجاهدة بين من يؤمنون جميعًا بهذا الحق، لكي يقوموا بهذا الحق على وجه الكمال، بالقول والفعل، فليس هناك "ثورة" على هذا الحق، .. وليست هناك فئة يستعجم عليها الإيمان بالله، وبالمبادئ التي يستقر عليها الإيمان، فتدبر بالصراع ضد "المؤمنين" ثورة تطيح بنظامهم، وتذهب بمبادئهم وأخلاقهم، وتأتي بنظام مضاد يقوم على الإلحاد، وعلى فلسفة تجلس وتتربع وتفتى وتتعالم فوق صخرة هذا الإلحاد..

ليس في مجتمع العرب القديم، ولا في مجتمع المسلمين المؤمنين بالقرآن إيمانًا عربيًا غير ذي عوج، وغير ذي تأويل وباطن ونفاق – من يشعر بالنقص، أو بالقصور، في دين يجمع منذ ما قبل الإسلام، ومنذ ظهوره وانتصاره كل مقومات الحياة التقدمية، التي يحقق فيها الإنسان فرديًا وجماعيًا ذاته الحرة والمتساوية بالآخرين، والمتشاركة مع الآخرين، والبانية للآخرين، بما يجعله فوق وساوس النقص، وأبعد من منال القهر، ومبرءًا

من عقد الخوف والضياع والتجاوز.. فعلى من يثور الفرد؟ .. والمجتمع على صورته، وصورته الملتزمة باللّه هي على صورة القوانين المتسقة والمتدافعة عبر المتصارعة في الطبيعة المحيطة به..

ليس في المجتمع العربي القديم إذن، ولا في مجتمع المسلمين المتعربين بحقائق القرآن ومحكماته صراع هدفه بين طرفين متناقضين تغيير احدهما عقيدة الطرف الآخر. واستبقاء عقيدته هو، بينما العقيدتان متناظرتان في التعبير الطبقي. وفي الانحراف عن السواء الإنساني في الدين الإلهي.. وإنما هناك التدافع وحروب الردع والتأديب لتأكيد الحق الواحد، المتعارف عليه. كلما غفلت عنه فئة، أو بطرت وطغت فئة أخرى..

كذلك فليس بين المجتمع العربي القديم والمتجمعات غير العربية المتعايشة معها أي صراع، بل هناك التدافع السلمي، والتعايش الإنساني، ما بقيت المجتمعات الأخرى على احترامها لحق العرب في دينهم، مسلمين أو كتابين، دون محاولة للنيل منه، أو لدفعهم عنه، فإن وقع التدخل في العقيدة وقع الصراع الذي يكون دفاعًا بالتناقض بين عقيدتين، وتفسيرين للحياة، وأسلوبين للتفكير، لا يتفقان إلا بزوال واحد منهما، وقد شهدت الحروب الصليبية ضد المسلمين عصرًا من عصور هذا الصراع، كما يشهد العصر الحاضر بين العرب المؤمنين والأيديولوجيات الغربية والشرقية مرحلة أخرى يتجدد فيها بلون العصر، هذا الصراع الذي ليس للعرب منذ تحرك إلا التصميم على مقاومته بأشكاله الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.. غربيا كان أو شرقيا.

في لفظ ومعنى "التقدمية" يقول الحصين بن الحمام المري من قصيدته الشهيرة التي تمثل النبي صلى اللّه عليه وسلم بأبيات منها في غزوة الخندق وهو يشارك أصحابه أعمال الحفر:

تـأخرت أسـتبقى الحيـاة فلم أجـد　　لنفســي حيــاة غــير أن أتقــدما
فليس على الأعقاب تدمى كلومنا　　ولكـن علـى أقـدامنا تقطـر الـدما
نفلـــق هامـــا مـــن رجـــال أعـــزة　　علينـا وهـم كـانوا أعـق وأظلمـا

فهذه حرب من حروب التأديب، ودفع الظلم، ورد المجتمع إلى عقيدته الصحيحة، ومنهجه السليم..

ويقـول زيـد الحيـل في تقدمـه إلى المكرمـات بحصـبة المـوت لحمايـة حقيقته مجاهرة من خلال القتال:

أنا الفارس الحـامي الحقيقـة والـذي　　لـه المكرمـات واللـهي والمـآثر
فلســـت إذا المـــوت حـــوذر ورده　　يباعدني عنها مـن القـب ضـامر
بوقافـة أخشـى الحتـوف بصـعدتي　　يباعدني عنها مـن القـب ضـامر
ولكنني أغشـى الحتـوف بصـعدتي　　مجـاهرة إن الكـريم يجـاهر

هو المقصود بالذات:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني　　عنيـت فلـم أكسـل ولم أتبلـد

ويقول بشامة بن حزن في نفس المعنى من التقدم للمخـاطر دفاعـا عـن المبادئ والإرادة والجماعة:

لو كان في الألف منا واحد فدعوا　　مـــن فـــارس خـــالهم إيـــاه يعنونـــا

ويقول عمرو بن معد يكرب في أسلحة التدافع والتقدم ليبقى الحق الإنساني للجميع:

أعـــــددت للحــــدثان ســـــا　　بغــــــة وعـــــــداء علنـــــــدي
نهـــــــــدا وذا شـــــــــطب　　يقـــد البـــيض والأبـــدان قـــدا
كـــل امـــرئ يجـــري إلى　　يـــوم الهيـــاج بمـــا اســـتعدا

ويقول عنترة في بشاشة لقاء الموت عن الحقوق:

فتى يخوض غمار الحرب مبتسما وبنثني وسنان الرمح مختضب

ويقول غيره في استعذاب الموت من أجل الحياة:

لا قوم أكرم منهم يوم قال لهم محرض الموت عن أحسابكم ذودوا

ويقول تأبط شرا في مقارعة الدهر والتدافع مع صعابه ومخاطره حتى يتقدم ولا يدبر أمره:

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وأمسى أمره وهو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا به الخطب ألا وهو للقصد مبصرا

فذاك قريع الدهر ما عاش حوَّل إذا سد منه منخر جاش منخر

ويقول غيره في هذا السباق التقدمي دفاعاً عن حقوق الأحرار ومكارمهم:

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا

وتقول امرأة تصف فاعلية ابنها وتقدميته فهو نافع لقومه ضاربا أعدائهم:

فتى لا تذر الشمس طالعة يوما من الدهر إلا ضر أو نفعا

ثورة الصعاليك:

وحتى يتضح مفهوم هذا التدافع نحو غاية الدين والمعروف والفضل، وما يشتمل عليه من حروب التقويم والتأديب تجمعا على دين واحد، وتسابقًا فيه، وليس صراعًا على عقيدتين، وتظالمًا بأحدهما لحساب الغالب – نذكر من حروب التدافع بين العرب الأولين حرب تقويم البخلاء،

وثورة من سموهم بالصعاليك عليهم، وهم ثوار أشراف نبلاء القصد، لكي يستخلصوا من هذه القلة من الحريصين على أموالهم حقوق أخوتهم فيه بحد السيف، لقد كانت ثورة صغيرة على هذه القلة لم تبلغ حد الصراع، فالبخلاء قليلون، والمجتمع يعلم أن هؤلاء البخلاء هم الخارجون على قانون وحكم الدين والمعروف بمقاسمة الأموال، وخلط الفقراء بالأغنياء في هذه الأموال التي لهم حق فيها، ماداموا لم يقصروا في السعي المتاح، ومادام لا يلزمهم أن يذلوا للأغنياء ليأكلوا من أموالهم بالذل بدلا من أن يأكلوا منها مع الكرامة في تقاضي الحقوق، وعلى هذا اعتبر العرب الأولون والمسلمون من بعدهم أن ثورة الصعاليك من مآثر الجاهلية قبل تنظيم الزكاة، وفرض حقوق الأموال لأصحابها داخل نظام المشاركة الطوعية التي أساسها الإيمان، والتي تبيح مع طوعيتها حرب الممتنعين كما حدث عند امتناع بعض المسلمين عن دفع الزكاة تأبيا على تقنين المقاسمة، فهي إذن مقاسمة أو مشاركة علمية ليست طوباوية ولا خيالية.

هذا بينما سخرت الشعوبية، ومن استعجم اعتقادهم من الشعوب التي كانت ولا تزال تحمي عدوان رؤوس الأموال بالحرب وبالسلب وبالقوانين التي يضعونها بنفوذهم – من هذه الثورة التأديبية على كل من يرى المال ملكية خاصة لا يحاسب عنها، ولا يرى لمن معه ومن حوله حقا يساوي حقه في هذا الذي يملكه داخل جماعته.

يقول عروة بن الورد لأمرأته:

دعيني أطوف في البلاد لعلني ... أفيد غنى فيه لذي الحق محمل

أليس عظيما أن تلم ملمة ... وليس علينا في الحقوق معول؟

إذا نحن لم نملك دفاعا يحادث ... تلم به الأيام فالموت أجمل

فهذا رجل يقاتل بحياته ليصادر أموال البخلاء، فيدفع بها إلى أصحاب الحقوق الذين شح عنهم هؤلاء البخلاء وهم الشيوخ والمرضى وذوو الحاجة.

ويشرح عروة هذا المعنى في نفس القصيدة فيقول:

لعل ارتيادي في البلاد وبغيتي ... وشدي حبازيم المطية بالرجل
سيدفعني يومًا إلى رب هجمة ... يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

أي لعله أن يلقى رجلا صاحب قطيع من الإبل لا يقاسم فيه أحدًا حتى يزيد ماله بالعقوق، وهو أقبح الظلم لأصحاب الحق، فيغزو هذا البخيل مهما كانت عاقبة غزوته طالما أنه لا يريد بذلك إلا رد هذه الحقوق لأصحابها... وهكذا كان يفعل.

ويقول تأبط شرا وهو من أشهر الصعاليك، وأصدقهم تعبيرًا عن الثورة على البخل والبخلاء، هذا البخل الذي لا يبلغ من ذنوب الرأسمالية وأوزارها إلا بمقدار الخطوة الأولى على طريق طويل:

وليل بهيم قد تسربلت هوله ... إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يسكب الصعلوك حمدًا ولا غنى ... إذا هو لم يركب من الهول معظما
ولم يشهد الخيل المغيرة بالضحى ... يثرن عجاجًا بالسنابك أقتما
لحي الله صعلوكًا مناه وهمسه ... من العيش أن يلقى لبوسًا ومطعما
ولله صعلوك يساور همه ... ويمضي على الأحداث والدهر مقدما

ويقول تأبط شرًا أيضًا من شعره الذي اهتم به دارسو الأدب العربي في الغرب فترجموه إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وقد زادت به عناية الشاعر جوته في ديوانه الشرقي، وفي أبياته هذه من قصيدة طويلة يصف فيه "الصعلوك" أي الثائر الشريف، الخارج على

الأغنياء، وصفًا تظهر به وحدة أخلاقه بالجود والشجاعة والغضب وهو يقاتل وحيدًا جميع أعدائه من البخلاء:

مطرق يشرح سمًا كما أط ... رق أفعى تنفذ السم صل

غيث مزن غامر حيث يجدى ... وإذا يسطو فليث أبل

يركب الهول وحيدا وما ... يصحبه إلا اليماني الأفل

الصدق والحمد:

هذه الحياة التي دارت بها الطبيعة في أفلاكها الصادقة. والتي امتلأت بها أعباء التقدم وأهوال التدافع بحب الأسرة وحب العشرة، وفاضت في الشعر بأصدق الحب وأطهره للصاحبة والأهل والولد – تكشف في القليل الذي تمثلنا به من ديوان العرب قبل الإسلام عن منهج ثابت لهذه الحياة هو "الصدق" بكل ما تدل عليه أبعاده في الدين والأخلاق والفعل والقول، كما تكشف عن غاية ثابتة لهذا المنهج هي "الحمد" الذي هو البرهان الأصدق في رضى الله، وشكر الناس على صدق هذه الحياة عندما أقامها صاحبها ودفعها على الدين والأخلاق والصدق بالأقوال والأفعال.

وربما كان من العجب حقًا، وإن يكن أمرًا لا غرابة فيه، أن يكون خروج نهار الإسلام من ظلام الجاهلية على مآثرها مجتمعًا في رمز حي متجسد في معنى الحمد منذ مولده هو "محمد" المحمد بالفعال والأقوال، والأسوة لمن يقول ويفعل، ورسول الله إلى هؤلاء العرب الذين طلبوا الحمد من كل السبل باجتهادهم فأتاحه الله لهم من أكرم السبل عليهم، بشريعة من الله، تثبت ما أثبتوا من الفضل والحمد، وتمحو ما أحدثوا من الثارات والشرك.

يقول أكثم بن صيفي من حكماء العرب وخطبائهم قبل الإسلام في نثر كالشعر وهو يقدم قانون حياة العرب بالصدق الذي هو ي أصدق صدقه الإسلام:

الصدق منجاة، والكذب مهواة، والباطل لجاجة.

ويقول الشاعر القديم في ارتباط الشعر بالصدق والحكمة:

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا ما أنشدته صدقا

وتقول إحدى حكيمات النساء جمعة بنت الخس:

خير خلال المرء صدق لسانه وللصدق فضل يستبين ويبرز

وإنجازك الموعود من سبب الغنى فكن موفيا بالوعد تعطي وتنجز

ويقول المثقب العبدي في أخلاق الصادقين وأدبهم:

لا تقولن إذا ما لم ترد أن تتم الوعد في شيء نعم

حسن قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم

والصدق في الفعال هو مصدر الحمد في حياة العرب.. يقول زهير في صفة بعض الصادقين الذين استحقوا أعظم الحمد:

لو أن حمدًا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد المرء ليس بمخلد

ويقول عمرو بن الأطنابة الخرزجي:

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وتقول الخنساء في الصدق الذي يستحق الحمد:

نعف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمد كنزًا وذخرا

وأكثر ما تظهر به ظواهر الألفة إلى الصدق في حياة العرب، واستقامة حياتهم عليه، وتدفق شباب أمتهم وكلامهم في عروقه ونظامه وغايته أنهم بالتحليل المقابل يستنكرون "الكذب" بكل صوره، ويعتبرونه عجزًا، ولومًا، وذلا. وعلى هذا فقد ظلت اليمين الصادقة خلال آلاف السنين هي في قضاء العرب أحد مقاطعه الثلاثة كما قال زهير في شعره مسجلا هذه الحقيقة:

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

أي أن ظهور الحق عند التقاضي عليه يكون من أحد آفاق ثلاثة: يمين صادقة، أو حجة يظهر بها الحق في مجال الاستدلال والإثبات، أو بينة مادية قاطعة مثل الاعتراف أو ما يماثله فلا يحتاج بيان الحق معها إلى يمين أو مرافعة ومنافرة.

ولما كانت اليمين الصادقة قاطعة في جلاء الحق فقد عمد العرب منذ الجاهلية، وحتى اليوم كما رأيت بنفسي بين بدو سيناء، إلى تأكيد صدق اليمين قبل أن يتم الحلف على البراءة من الكبائر مثل قتل النفس، أو العدوان على العرض، أو على الجار، وذلك بعرض الحالف على جهاز كشف الكذب، وهو طاسة محماة في النار حتى تحمر وتتوهج، ولها يد يمسكها بها من يعرضها على الحالف ليعلقها بلسانه، فإن كان بريئًا لم تصبه النار بسوء، وإن كان مذنبًا أكلت النار لسانه، وأضرب به، وظهر كذبه.

والعرب منذ القدم يؤمنون أن النار لا تحرق صادقًا، وهم يستندون في ذلك من التاريخ الديني إلى قصة أبيهم إبراهيم الذي لم تحرقه النار لأنه كان صادق الإيمان، وبريئًا بصدقه من الكذب على الله. ولهذا فقد كان الحالفون ولا يزالون في قضاء العرب يقبلون على هذه النار فيمرون

بألسنتهم عليها قبل الحلف إن كانوا صادقين، فلا تنال منهم شيئًا، وبذلك تكون ألسنتهم قد أثبتت براءتها قبل الحلف من الكذب على ما تقسم عليه.

في الجاهلية كان الرجل الذي يعرض النار على الحالفين، والذي كان يخوفهم منها إن كانوا كاذبين، والذي كان تأكيدًا لصدق هذه الدعوى يبدأ هو فيلعقها بلسانه أمام الحالف ليقدم عليها، أو لينصرف عن اليمين، يسمونه "المهول" أي الذي كان يعرض على الحالف أهوال ومخاطر الكذب، وأفدحها خزيه أمام الناس، وقهره ومعابته.. بينما كان ولا يزال نفس الرجل بين بدو سيناء المصرية يسمى "المبشع" أي الذي يقوم بنفس الواجب من حيث أنه يبشع للمتهم مخاطر الكذب، ويؤكد له قانون براءة الصادق، واحتراق الكاذب بآية الله بالنار التي نجا منها إبراهيم.

في وصف الحالف وهو يصد بوجهه تهيبًا من النار عندما يقمها له المهول أو المبشع يقول أوس بن حجر في قصيدة يصف فيها حمارًا وحشيًا:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

فكيف مع هذه الحياة الصادقة، التي تدور خصائصها وأخلاقها في العرب حول مركز أساسي قوي النظم، شديد الجاذبية، هو الصدق بمعناه العلمي في الدين، وبمعناه الإنساني في سواسية الأحرار، وبمعناه الاجتماعي في مقاسمة الأموال، وبمعناه التطبيقي في التقدمية والتدافع والإقبال على الموت، وبمعناه التسجيلي في صدق الخبر، وصدق الرواية عن الواقع، صدقًا علميًا دينيًا واجتماعيًا وتقدميًا لا تزال شرائعه ودوافعه قائمة في حياتهم إلى اليوم – كيف نغري هؤلاء – على غير ما يصلح لهم، وبلسان وغواية أعدائهم، على أن ينتحلوا فنون الصراع القائمة على التكذيب والتخييل، فينفصلوا انفصال من يموت عن واقعه، بانفصالهم عن هذا

الصدق الذي عاشوا به واقعهم، وتاريخهم، يدافعون به أعداءهم فيتساقط الأعداء، ويستمرون، وينهزم الأعداء يومًا محتومًا بينما هم الذين بالبقاء والتجدد والشباب ينتصرون.

كيف يتقبلون أن ينتزعوا قلوبهم الصحيحة ليزرعوا بدلا من قلوب أعدائهم السقيمة، وفي قلب سقامها عقدة الوثنية، وبؤرة الصراع، وحبال التخييل والتمثيل الواهنة في القصة الملفقة، والمسرح الطبقي، الذي عاش حتى مات في قبضة الطبقة، ورهين الدعاية لأكاذيبها.

كيف وهؤلاء الصادقين عندما أرادوا أن يتخيلوا في المدح خيالا لا يجزيه الصدق والواقع عرضوا خيالهم كأمنية لا تتحقق، وأنفوا أن يطرحوا الصورة الكاذبة على جمالها طرح الحقائق فقالوا "لو... ولكن" وذلك في مثل قول زهير يمدح أكرم ممدوحيه في واقعهم الصحيح:

فلو كان حمدا يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وفي مثل قوله أيضًا:

لو نال حي من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الأفقا

أي إنه – مهما كانت فعال الإنسان بالغة حد الكمال فإنها لا تجعله خالدًا، أو لا تخرق به القوانين، فإن ذلك لا يجوز إلا من باب التمني الذي لا يتحقق.

ولقد عاش بين العرب الأولين قبل الإسلام وبعد الإسلام، أبطال أعظم من أبطال هوميروس، ومن بطله الوهمي أوديسيوس الذي سمي به الأوديسة، مثل زيد الخيل، وبسطام، وعنترة، وسيف بن ذي يزن، وذي القرنين لحميري،ومع ذلك فعندما تكلم أمثال عنترة وزيد الخيل وبسطام وعمرو بن معد يكرب عن أنفسهم، وفي أشعارهم، لم يتجاوزا الصدق،

ولم يفتعلوا الخوارق، وعاشوا بشرًا كرماء بالبطولة الصادقة، فلم يتألهوا، ولم يؤلهم أحد، وظلوا بين جماعتهم من العرب بشرًا حتى إذا ما وصلت فعالهم بعد الإسلام إلى أرض الشرق والترف، والجلوس والأساطير، أصبحوا في الأساطير أبطالا يخترقون الحجب، ويخرقون السنن، كآلهة اليونان وأشد فتكا، بينما لم يتحدث عنترة عن نفسه في أعظم ما فخر به إلا بكلمة "لو" حين قال في وصف بعض وقائعه:

إن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

والخيل ساهمة الوجوه كأنما ... تسقي فوارسها نقيع الحنظل

وإذا حملت على الكريهة لم أقل ... بعد الكريهة ليتني لم أفعل!

ثم ظهر بالإسلام بين العرب المسلمين أبطال مقربون إلى الله، أصدق فعالا، وأبعد منالا، وأعظم في حياة الإنسانية أثرا، فبينما ظلت سيرة هؤلاء في وعي المؤمنين الصادقين هي سيرة البشر الذين لا يضاف إليهم بالتخييل، ولا يطمس جلالهم بالتكذيب، لتبقى حياتهم من أول حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – أسوة، وقدوة، وحجة على الحق وشهادة – فإن هناك من سبقوا إلى عدد من هؤلاء الأبطال الأبرار فافترقوا عليهم بالأقاويل، وأخرجوهم في أكذب الوهم عن بشريتهم، كاذبين على الله، وعلى الناس، وعلى الأجيال.. ولا تزال الفتنة تمد أذرعها وراء أمل الغزاة لمعتقداتنا من أجل سرقة مواردنا – أن ينقلوا أكاذيبهم عن هؤلاء الأبرار من مرحلة الأسطورة إلى ساحة المسرح والمسرحية تحت عنوان جديد للغواية والتشتيت والاختلاف هو "المسرح الإسلامي"!!

إن هؤلاء الغزاة يحتالون اليوم بكل مخططاتهم، لكي ينتقلوا بالعقل العربي من منطقة الأمن النفسي بالإيمان إلى الإصابة بمثل ما هم فيه من القلق بالإلحاد، والصراع بالتناقض، وتحريك العالم بالتمويه –

والعرب معهم – تحت شعارين يتقابلان عند كارثة محققة للبشر: الشعار الأول للأقوياء العمالقة وهو "الطعام والقول قبل الأخلاق"، والشعار الآخر للأقزام والمتخلفين وهو "المتعة والاستهلاك والهلاك قبل الإنتاج"..!

هذا بينما جذور "السلام النفسي" في عقيدتنا منذ القدم هي التي تثمر "السلام الاجتماعي" في حاضرنا بالجواب الصحيح عن كل الأسئلة.. أسئلة من نحن؟.. وماذا نريد؟.. وكيف نحقق ما نريد؟

في الجاهلية على تفرق روافدها، وأهوال تفرق كلمتها كان السلام النفسي حتى في معمعان القتال الذي كانوا يسمونه "يوم الكريهة" سائدا جميع النفوس.. لم يكن هناك مع الوضوح والصدق والفاعلية قلق، أو خوف، أو اكتئاب.. لم تكن هنا رغبات لم تتحقق، أو آمال بعيدة عن التحقيق.. لم تكن هناك أمراض ضياع أو عصاب أو ذهان أو شيزوفرينيا.. التي هي جميعًا بعض حصاد مجتمعات الرواية الخيالية، وتكذيبات المسرح، ومهيجات السينما للأعصاب، والمطامع والنزوات.

يقول طرفة عن سلام نفسه ووضوح قصده له:

لعمري ما أمري على بغمة نهاري ولا ليلي علي بسرمد

ويقول قيس بن الخطيم في نقاء نفسه من أي مخزون للرغبات المحطمة:

متى يأت هذا الموت لا تلف حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

ويقول الشاعر القديم في حال السوية الصحية بين نفسه وبدنه وزمنه:

كأنك لم تسبق من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

ويقول أيضًا:

فإن تأتني الدنيا بيومي فجاءة تجندي وقد قضيت منها مآربي

فإذا حدث مرة أن تردد قرار النفس والقلب بين أمرين متقاربين فإن عبد قيس بن خفاف البرجمي يوصي بقوله:

وإذا تشـــاجر في فـــؤادك مـــرة أمـــران فاعمـــد للأعـــف الأجمـــل

وقضية الخيار بين أن يأخذ العرب بمنهج دينهم وأصالتهم وآدابهم في الصدق سلوكًا وقولا وتعبيرًا، وبين عزوفهم عن هذا المنهج المتكامل في حياتهم بأبعاد الصدق والأمانة والحمد ليأخذوا بأعراض مرض النفس الوثني، وسقام العقل الصراعي، في القصة والمسرح.. إن قضية هذا الخيار لم تكن واردة قط منذ أول احتكاك بين الحضارة العربية المرشدة والأوهام اليونانية المجردة.. فإذا كانت بظروف الغزو الفكري المعاصرة قد أصبحت شجارًا في نفس بعض المثقفين العرب، أو أشباههم، فلن تكون القصة الخيالية أو المسرحية، بجوار الشوامخ البانية للإنسان الحر الصادق المؤمن في الآداب العربية – هي من الأعف.. أو من الأجمل!!

السلام والحب:

يبقى من دلالات هذا الشعر العربي في الجاهلية، وهو حصيلة ما سبقت الإشارة إليه من معرفة الله بصفاته، ومن حياة المعروف والصدق والحمد في مقاسمة الأموال، والحرية والمساواة، والتقدم والتدافع، وسلام النفس والمجتمع – ما تحتم به الرد من دلالات هذا الشعر على العرب الذين أخطأوا دراسته، أو أساؤوا تأويله، أو تقبلوا في فهمه مفتريات الشعوبية والمستشرقة، وهم يدورون معهم حول "أكذوبة" صارخة تزعم أن المجتمع العربي كان قبل الإسلام مجتمع لصوص ونهابين وسراق، لا يعرفون الله، ولا يقيمون العرف، ولا يحفظون الأعراض.. وهم دون أية مجتمعات عرفتها البشرية فيما اقترفوه من عجائب الموبقات.. وصور العدوان!!.. وإنه لذلك..

ولذلك فقط.. خرج الإسلام من بينهم!!.. أي كما تولد الحمامة من الثعبان.. والرحمة من العدوان!

إنه يبقى أن نرد على أكثر المستشرقين الذين لا يزالون يمضغون لجام لغاتهم الحديدية المفصلية، والذين يتجاهلون أن لغة العرب التي خرج منها "الكتاب" الوحيد في صدقه وعلمه في العالم الذي تعلم عليه هي برهان حياتهم قبل الإسلام بالمستوى العقلي والبياني والعلمي والحضاري الذي يجيز لهم – كما وقع فعلا – أن يتدبروا هذا القرآن المبين .. إنه يبقى أن نشير إلى أن هؤلاء العرب الذين خطوا نحو الإسلام أقرب الخطى إلى كماله كانوا في سلمهم وحربهم "أخوة متحابين" يعرف كل منهم قدر أخيه، حتى وإن كان في غير فريقه أو معسكره.. وأن محور السلم والحرب في حياتهم وقد كان هو الصدق، والمعروف، والوفاء بحق الله. إنما كان يدور بهم في هذه الحياة الصادقة على تقويم حركة جماعاتهم المختلفة، كلما بدر من فرد منها أو جماعة... ما يعد خروجًا على ما تراضوا به دينًا وأخلاقًا من مقاومة الظلم، وأداء الحقوق، ودفع أي ظاهرة لسلطان رجل أو طبقة، حتى تبقى السواسية فيهم هي عصمتهم ليقولوا ما يعتقدون، وليفعلوا ما يقولون.

هكذا كانت كل الحروب والأيام التي شهدها العرب في جاهليتهم أو إسلامهم هي حروب تقويمية على المعروف ودين إبراهيم في الجاهلية، وعلى الإسلام وشريعته الكاملة بعد الإسلام، مهما اختلف الاجتهاد.. وعلى هذا الأساس ظهر حلف الفضول في مكة لرد الظلم عن أي مظلوم قبيل بعثة الرسول، وعليه أيضاً كفل أبو طالب محمدًا ومنع قريشًا منه مع امتناعه عن الإيمان به، وعليه كذلك قام رجال من قادة المشركين في مكة وهم هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأبو البختري

بن هشام ورمعة ابن الأسود فوقفوا في وجه قريش عندما حاصروا المسلمين في أحد شعاب مكة، وتعاهدوا على منع التعامل معهم البيع أو الشراء حتى كادوا أن يهلكوا، فنقضوا صحيفة هذا العهد، وحملوا إليهم الأطعمة من أموالهم، وأخرجوهم من حصارهم... وهم لم يؤمنوا بعد..

لقد كان السلام والحب والتقويم على أخلاق الدين والمعروف، والسواسية والمقاسمة، هي عمود حياة هذه الأمة، ولذلك فقد كانت حروبها على غير صورة تلك الحروب التي عرفتها شعوب الحضارة الوثنية.. والتي لا تزال نعرفها.. كانت حروبًا من أجل الحق بغير افتعال، وإن أخطأوا الاجتهاد.. كانت حروبًا بين الأخوة الذين يصدق كل منهم علمه بأخيه، ويحفظ بشهادته قدر أخيه، وإن قائله عند مس الحقوق، أو التجاوز عن العدل إلى الجور.

من أجل هذا كما لم يحدث قبل وبعد في حروب الجماعات، وصدام الأفراد، أن القاتل كان يبكي قتيله ويرثيه.. ويرى أن ما فعله كان ضريبة دفع الظلم، ومقاومة الطغيان، عند أول بوادره حتى لا يستفحل.. وفي هذا المعنى من السلام والحب حتى تحت غبار الحروب يقول قيس بن زهير يرثي حمل بن بدر بعد قتله في معارك حروب داحس والغبراء.. وهو مع رثائه يبكي على فضله ويتفجع:

تعلم أن خير الناس ميت ... على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه مازلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... بغى والبغي مرتعه وخيم

ويقول الحصين بن الحمام المري في قصيدته التي أشرنا إليها:

نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ويقول مثله في مثل هذا السلام والحب تحت غبار الحرب التي خاضوها لمقتضيات السلام بالعدل:

ونبكي حين نقتلهم عليهم ونقتلهم كأنا لا نبالي

ويقول قيس بن الخطيم الأوسي في حرب سمير بن الأوس والخزرج قبيل الإسلام وقد أثارها اليهود بينهم:

لما بدت نحونا جباههم حنت إلينا الأرحام والصحف

وكانت قمة هذا الحب لقومه وهداهم في دعاء النبي لهم وحزنه لعنادهم في قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي قائل نفسك أسفًا عليهم.

الفصل الرابع

عرب مصر والشام

رفضـــوا المسرح قبل الإسلام

شهادة التاريخ:

ليست هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها الوطن العربي أوروبا المسلحة بأطماعها، وثقافتها التي تعمل بالترويج لها، وزرعها هنا وهناك وسط جاليات أوروبية أو عميلة، لتكون تمهيدًا وسندًا ومخدرًا لغيبوبة تتم خلالها سرقة حقول القمح، والكروم، وطرق التجارة العالمية، والتوسع في حالة من "الدفء" جنوبًا وشرقًا.. على حساب العرب!

وهكذا يمكن أن نتذكر دائمًا ما جرى منذ الغازي المتألة الإسكندر المقدوني، وتلميذ أرسطو، والذي سجد لآلهة المصريين في سيوة، من أجل أن يخضعهم بالسيف لما توهم أنه يستطيع بالقوة العسكرية الخاطفة أن يشيد إمبراطورية الثقافة اليونانية أو الهيلينية على الأرض العربية.

وكان على مصر العربية منذ أيام مينا والملوك القدماء، والتي أسهمت بشكل ظاهر في تحضير شعوب بحر أيجة، ومن بعدهم همج الرعاة الهيلينيين الذين ذبحوا سكان شبه جزيرة اليونان الأصليين من الفلاسفة، ورموا أجساهم إلى كلابهم المتوحشة، وكانوا كما يقول المؤرخ هندريك فان لون "على جانب كبير من انحطاط الخلق" – كان على المصريين تحت حكم الإسكندر والبطالسة والملكة الغانية: كليوباترا – أن يدافعوا بعد احتلال أرضهم، وتبجح سادتهم الذين تعلموا القراءة والكتابة على أيديهم فلم ينتفعوا بها إلا في كتابة الأوهام وشعر الدجل والتعاظم والخرافة – كان عليهم أن يدافعوا عن ثقافتهم الرفيعة المتمثلة في بقايا ما يتمسكون به من الدين واللغة والعطاء الحضاري.

لقد حاول المصريون أن يقوموا بالعديد من الثورات على غزاتهم، ولكنهم لأسباب كثيرة مع قدرتهم على طرد الأعداء لم ينجحوا في تحقيق هذا الهدف، على أنه رغم كل شيء، وهو ما يهمنا إثباته في هذا الكتاب، فإن حرب الاستهواء والتفكيك الداخلي للهوية المصرية لم تحقق هدف الإغريق في جميع مجالات الفن والثقافة، لقد بقيت الهوية المصرية خالصة للمصريين، واعتزل الإغريق بفنونهم في مستعمراتهم السكنية، وفي الإسكندرية، وأدركوا عقم المحاولات التي يمكن أن يبذلوها في سبيل محو الشخصية المصرية المعبرة عن ذاتها في آدابها وفي فنونها وبخاصة في فن النحت.

وفي كتاب تاريخ الحضارة المصرية – لوزارة الثقافة والإرشاد – يرد هذا النص الذي يؤكد نجاح المصريين تحت حكم البطالمة وخلال أكثر من ثلاثة قرون في أن يحتفظوا بمعتقداتهم ولغتهم وطرازهم الفني، رغم الجهود التي بذلها دعاة التوسع الهيليني الثقافي من الإغريق لإذابة الفنون المصرية بمزجها بالطراز الإغريقي، بل محاولتهم مزج الجنسين أيضا. بالتزاوج المختلط، وهي محاولة لم تنجح بالتأكيد.

يقول هذا النص في كتاب "تاريخ الحضارة المصرية":

"ولا ريب في أن الفن البطلمي يعطينا صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية في مصر في عهد البطالمة. لقد شهدنا أن غالبية الفن الإغريقي، وغالبية الفن المصري كانت إغريقية خالصة، أو مصرية خالصة، ولذلك لابد أن أغلب الإغريق وأغلب المصريين قد ظلوا خالصين في جوهرهم"!

وفي ملاحظة أخرى في هذا الكتاب للدكتور إبراهيم نصحي يقول: "ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا في عصر البطالمة مزج الطرازين المصري

والإغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم عبثًا مزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية"!

وننتقل مع الدكتور إبراهيم نصحي بعد ذلك إلى صميم القضية التي نناقشها في هذا الكتاب حول الغزوات الأوروبية الصريحة لآداب الوطن العربي ولغته وفنونه، حيث يقدم لنا وجهة نظره الصحيحة بعد تحليل ذلك الصراع اليوناني السابق:

"إنه لم توجد إلا طريقة واحدة ناجحة لمزج هذين الفنين.. يعني فن النحت الإغريقي وفن النحت المصري – اللذين كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا بعيد المدى، أما هذه الطريقة فهي أن يفنى أحدهما في الآخر بأن يتغلب أحدهما بحيث يقضي على الآخر قضاء مبرما، لكن ذلك كان عزيزا أن يتعرض له الإغريق باعتبارهم السادة المحتلين، وأصحاب حضارة يفاخرون بها غيرهم. كما كان عزيزا أن يتعرض له المصريون أيضا، فقد كانوا لا يزالون يذكرون مجدهم القديم، ويعتزون بتقاليدهم، ولاسيما أن الفن عندهم كان وثيق الصلة بالديانة، وأنهم كانوا شديدي الاستمساك بديانتهم".

وينتقل نصحي من هذا إلى ما يؤكد قيام المسرح بدوره في فترة الاحتلال الإغريقي، وأنه برغم أن البطالمة الحاكمين قد استخدموه في كل أنواعه الاستعراضية والإضحاكية فإن ثقافة المصريين لم تتأثر به، واعتبروا بصدق أن المسرح هو "معبد" ديانة الغزاة حيث يقف الكهنة والكاهنات في ملابس التمثيل ليقرأوا ما حفظوه نم شرائح وصفحات ديانتهم الاضحاكية والإبكائية التي يفسرون بها الحياة!

يقول الدكتور إبراهيم نصحي في هذا الكتاب "تاريخ الحضارة المصرية" عن هذا الجانب المسرحي: "ويتبين من الوثائق البردية أن الإغريق

بوجه عام كانوا يميلون إلى إشاعة البهجة في نفوسهم بإقامة الحفلات الخاصة بأعياد الميلاد، أو المناسبات الاجتماعية، كما كانوا في الأعياد الدينية، وأعياد جلوس الأباطرة على العرش، وأعياد ميلادهم، كانت تقام حفلات عامة تتخللها الاستعراضات والمهرجانات.. وكانت توجد حتى في عواصم المديريات "مسارح" أو قاعات للموسيقى، كانت تمثل فيها الكوميديات الشعبية، والتمثيليات الهزلية، ومن حين لآخر روايات من التراجيديا الكلاسيكية، ومن الكوميديا الجديدة، وكانت تجوب البلاد أيضا فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية".

هكذا منذ أكثر من ألفين من السنين كانت تسير قوافل الثقافة مجهزة باسلحتها وبطاريتها من الاستعراض والهزل و"الهلس" والمسرح الضاحك الشعبي، والمسرح الطبقي المختال، مع فرق محشودة للدعاية والإذابة والغواية من الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، ومعهم خمورهم وزمورهم، وخططهم وأهدافهم.. فماذا صنعوا في قلب مصر وعقلها.. وإلى أي حد نجحوا في استخفاف سمعها وبصرها!؟

يقول الدكتور إبراهيم نصحي فيما هو جزء من شهادة التاريخ التي تؤكد في كل أطواره أن الشعب العربي في مصر، وفي غيرها من الشعوب العربية، وهم أصل الحضارة في العالم، أكثر تمسكاً بمقومات حضارتهم تحت أي قهر، وفوق كل إغراء:

"وإذا كانت الأمية فاشية في عامة الإغريق، فقد كانت فاشية كذلك بين جموع المصريين – المحكومين – الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، مستمسكين بديانتهم إلى أن اعتنقوا المسيحية.."!!

عهد الرومان:

وكانت فرصة الرومان الذين ورثوا اليونان في مصر والشام، وأطالوا برسائلهم البربرية ومذابحهم مدة استعمارهم – أكبر في محاولة تفكيك الذات العربية من طريق الملاعب والمسارح التي توغلوا في إنشائها إلى أعماق المملكة العربية النبطية، التي كانت حدودها تتاخم كلا من المدينة ودمشق وخليج السويس.

لقد استولى الرومان على البتراء عاصمة المملكة النبطية جنوب فلسطين بعد مقاومة شديدة فسقطت في أيديهم في عهد الإمبراطور تراجان سنة 106 ميلادية.

في هذه المدينة الحصينة وسط الجبال، والمنحوتة في قلب الصخر أنشأ الرومان مع ما أنشئوه من مباني الحكم واللهو "مسرحا" داخل ملعب واسع منحوت في الصخر على شكل نصف دائرة، ومؤلف من ثلاثة وثلاثين صفا من المقاعد بعضها فوق بعض بهيئة درج يسع نحو 3000 شخص.

وفي سيناء المصرية يوجد في "الجورة" شرقي العريش وجنوبي رفح في طرفها الشرقي خرائب متسعة من عهد الرومان.. وبها آثار قلعة وأبنية باذخة مبنية من الحجر كما أن بها آثار بئر رومانية، ومثل هذه الآثار موجودة في وادي العوجاء حيث لا تزال هناك إلى اليوم آثار مدينة متسعة، من عهد الروم البيزنطيين، وبهذه المدينة ملاعب وآثار كنيسة وقلعة وآبار.. وكل هذه الآثار وأمثالها في قلب طرق القوافل التي يقودها العرب آلاف السنين قبل الإسلام – تؤكد أن العرب سواء منهم البدو، أو الحضر، قد شاهدوا مسارح الرومان، كما شاهدوا من قبل مسارح اليونان، في الإسكندرية ودمشق، والبتراء، وفي قلب صحراء سيناء المصرية.. فماذا تركت هذه

الهياكل الوثنية التي تمتع بها الغزاة المتألهون بما يوافق طباعهم، ونزوعهم العدواني والترفي – في نفوس العرب الذين ألقوا عليها من بعد نظرة زراية صامتة ومضوا على طرق تجارتهم!

لقد كان الرومان يتلهون في ملاعبهم ومسارحهم، وأيديهم مخضبة بدماء ضحاياهم، بينما على مبعدة منهم، وفي خفية من أعينهم كان رهبان مصر يفرون بدينهم من مذابح هؤلاء البرابرة الذين لم ينههم شيء في آدابهم، أو مسرحهم، أو شرائعهم. عن الشراهة للقتل.. بل والتلذذ بتعذيب القتلى من الأبرياء.. والأبرار.. وأي حضارة في العالم، وفي كل عصور التاريخ أخرجت مثل نيرون ودقلديانوس.. إلا أن تكون هي الحضارة الأوروبية نفسها في طور متقدم من أطوارها كهذا الذي خرج منه أولئك الذين أبادوا الهنود الحمر.. وشعوبا في أفريقية وآسية.. وكما خرج هتلر.. وتلامذته الذين تتلمذوا عليه بذبح العرب في فلسطين من عصابات صهرون!!

المدفأة والشمس:

لقد ظهرت المسارح، وما حولها من أجواء العربدة، وضجيج السكارى، وخيلاء الغزاة، قرونا طويلة فوق أرض العرب. لقد ظهرت في عواصم البلاد فلم تكن خافية عن مواطنيها المتحضرين بها، وظهرت في الصحارى المحيطة بالجزيرة العربية، وعلى طرق القوافل الرئيسية بين مصر والشام والحجاز كما كان ذلك واضحا، ولا تزال آثاره قائمة في سيناء، حيث شاهدها ومر بها العرب البداة من مختلف القبائل والأصقاع.. والجميع بدوًا وحضرًا بين العرب لم يلتفتوا إليها، ونسبوها بحكم قاطع صادق إلى مصدرها من العقائد والثقافات الوثنية.. فهل كان هذا الحكم لأن هؤلاء العرب من بدو وحضر كانوا يومذاك بدائيين ومتخلفين!؟

إن الحكم المختلق ببدائية العرب وتخلفهم وقد كانوا أرقى الشعوب قبل الإسلام وبعده فكرا ومنهجا جماعيا للحياة بدلالة لغتهم وشعرهم هو حكم كان ولا يزال قاصرا على دعاة الغزو للوطن العربي، والمأجورين لهم من بعض المستشرقين والمبشرين وغيرهم، وهو حكم لا يستحق – مع سقوطه بكثرة الشواهد – أن يكون دعامة لعبث بعض الأجيال المعاصرة من الأدباء أو المتأدبين العرب بمقومات هذا الشعب الإنساني في لغته وآدابه، ودينه وخصائصه، وذلك عندما يروجون بكل الحماقة والتدليس لفنون تهدم قواعد هذا الشعب ولا تبنيها، وتدمر ملكاته الطبيعية، وثرواته الحضارية، على طريق فنائه في غيره، وفقدانه لشخصيته وذاته.

لقد حكم العرب القدماء حكمهم القاطع والصحيح على أنماط فن المسرح الذي ارتفعوا بآدابهم ودينهم عنه، ولقد كانوا بهذا الحكم أهلا لإصداره على من دونهم دينا وحضارة وثقافة. ذلك أنهم حين أصدروا هذا الحكم قبل الإسلام وبعده كانوا قبل الإسلام شعبا من الشعراء، لا فرق في ذلك بين الرعاة والحكماء، والرجال والنساء، وكانوا إلى ذلك شعبا من المثقفين، بل كانوا جميعا في مجال علم اللغة التي نزل بها القرآن، وتصريف القول بها تصريفا يدخل إلى اليوم في كتب تعليم اللغة ودراسة نحوها ونظامها ومفرداتها فوق مستوى من نضعهم اليوم في القاهرة ودمشق وبغداد أعضاء مبجلين في مجامع اللغة العربية.. فكيف لا يكون حكم هؤلاء في قضية من قضايا التعبير بلغات مقابلة وناقصة جديرا بالدراسة والاعتبار؟!

كذلك كان هؤلاء العرب بعد الإسلام فوق ما تميزوا به أقدر على تبصر المدلول الإنساني والعالمي لدينهم وثقافتهم، وآدابهم وأخلاقهم. لقد خرجوا في وحدتهم لإزاحة كابوس ومظالم وجهالات حضارة الإلياذة،

والمسرح، والاستاديوم، الذي يلقى فيه الإمبراطور بالأسرى والمسيحيين إلى وحوشه الكاسرة!.. ولقد بلغوا وهم يغيرون العالم سلما، وفي ومضات من زمن، وفي واقع حي باتجاه الأفضل والأقوم – فوق ما كان يمكن أن يحلم به في أغرب أحلامهم جميع مؤلفي المسرحيات اليونان والرومان والبيزنطيين.. بينما كان هو نفس الطريق والمسار كما تنبأ به إبراهيم وإسماعيل قبل فلاسفة اليونان العشرة قبل سقراط، وكما نزل به القرآن على محمد بهذه الرحمة للعالمين، في جهاد من باعوا أنفسهم وأموالهم لله من المؤمنين.

لقد عرف العرب بأصالتهم قبل الإسلام، وشرائع الله إليهم بعد الإسلام، أن عبقريتهم وسلامتهم في لغتهم ودينهم، وقد جمع الله لهم ذلك في كتاب خالد حي هو القرآن، وبالقرآن وتحت رايته تحققت لهم مع فيض التسامح مع أعدائهم، ومع تجديد صورة العالم الكئيبة والقائمة تحت سطوة الجبابرة، مغلقي العقول، طوال الشهوات – صور أخرى من سواسية البشر، ومن التعامل بأخلاق الدين من الأمانة والعدل والمحبة في الشارع والسوق، والمسجد والمدرسة، والمكتبة والحمام، ومن نشر الثقافة العربية الإسلامية بين كل الناس في الوطن العربي، وفي الأندلس، وجزر البحر الأبيض، وأكثر بقاع أوروبا، وفي قلب أرض اليونان والرومان، حيث أدرك الجميع وهم ينتفضون من الدفء والأمن والحيوية واليقظة، وينتظمون بأفكارهم ومشاعرهم مع نظم إيقاع جديد، أصدق وأحب وأبعد مدى – لقد أدركوا أن شمسا حقيقية أضاءت أرضهم، وأذابت ثلوجهم، وأزالت مخاوفهم، ودفعتهم بأمل أقوى إلى حياة أروع، وعلوم أنفع.

لقد قال بهذا القول عشرات ممن تصدوا لأثر حضارة العرب المسلمين على أوروبا من الأوربيين الذين لا يزالون يدرسون إلى اليوم في الجامعات

الأوروبية آداب العرب وشرائعهم، وما قدموه للعالم الأوروبي لأول مرة في تاريخه من مبادرات الإسلام القرآنية في مجال "حقوق الإنسان".. ولكن هناك أيضا من أدركوا مثل تولستوي وبرناردشو وجوستاف لوبون والألمانية الواعية سيجريد هونكه مدى الخلاف الجذري بين ثقافة العرب بمقوماتها السارية معها منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبين الثقافة الغربية في أصولها الممتدة فيها منذ هجرات شعوبها من أواسط آسيا وشمالها حاملين خصائص لغاتهم وفلسفاتهم ومناهج تفكيرهم من الوثنية الهندوأوروبية.

تقول سيجريد هونكه في كتابها المنصف "شمس العرب على الغرب":

"وإذا أضفنا إلى هذا الموقف الكريم الذي وقفه العرب المسلمون من الشعوب التي انضوت تحت رايتهم هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الإسلامية وهي ثقافة تختلف في جوهرها عن هذا الطلاء الهيليني أو القشور الرومانية ازددنا تقديرا وإعجابا بالعرب"!

نعم.. لقد صدقت سيجريد هونكه في وصف طبيعة الثقافة والفلسفة اليونانية بالطلاء، كما وصفت جهد الرومان الثقافي والقانوني بالقشور.. طالما كان محتوى هذه الثقافات هو العجز عن تفسير الوجود تفسيرا علميا صحيحا يتحرر به الإنسان من القهر لغيره، أو الخضوع لغيره.. وطالما أن التعبير عن هذه الثقافات كان مصدره الخطأ في تصور الواقع، وكانت أداته دائما مفكر "يتفلسف" داخل حجرة، وبجوار "مدفأة" معزولا عن الحقائق التي يبحثها بتشويش أطماعه ومخاوفه، وبعجزه الكلي عن أن يكون – فيما عدا الإحساس بالجهل – تعبيرا عن جماعته التي تختلف أكثر مما تتجانس.. هذا إلى أن هذا المفكر الذي يبيع فكره لسادته كان يستخدم في رصف أفكاره لغته الهندوأوروبية، الفاقدة للحياة

والحركة الذاتية.. اللغة التي تتألف كلماتها بطريقة إضافية وتركيب قطع جامدة، توزع دلالتها المعنوية بالجملة، وهي طريقة التشييد للكلمة بإضافة مقطع في صدرها، أو مقطع في عجزها، كما لو كانت هذه الكلمات أجزاء من قطع معدنية ثابتة الدلالة، وعلى هذا فمن المحتم دائما في الكلمات الأوروبية المركبة من صوادر مثل Anti بمعنى: ضد وهي في الإغريقية Andi، ومثل ,Poly في الإنجليزية والإغريقية بمعنى: متعدد، والمركبة من كواسع أيضا أي من نهايات للكلمة مثل Ness للمصدر وSome للصفة.. إنه من المحتم أن يواجه السامع أكثر من معنى مستقل بنفسه في الكلمة الواحدة، وإن كان هذا المعنى مربوطا بمفصل مقطعي إلى معنى آخر وثالث كما يربط الأسرى، وإن عليه أن يقوم بعملية ذهنية إضافية ليمزج بها هذه المعاني لتعبر عن حصيلتها الممكن تصورها أخيرا من خلط ورج معاني هذه الكلمات المفصلية بعضها ببعض.

على سبيل المثال كلمة: Antiaircraft المكونة من المقاطع Anti بمعنى ضد وAir بمعنى هواء وCraft بمعنى مركب، فالمعنى المفصلي لهذه الكلمة هو "ضد هواء مركب" أو "ضد مراكب الهواء" وأما المعني التحصيلي للمقاطع الثلاثة فهو "مقاومة الطائرات المهاجمة"!.. فأي تشويش في التفكير، وأي غموض وقصور في المعنى يلازم مثل هذه اللغات المفصلية، الجامدة وغير الحية، والتي يتم استعمالها بهذا القصور الناطق، في أعظم شئون الحياة، في غير جلاء أو يقين، كأنها الأطراف الصناعية!!

وأين هذه اللغات المفصلية التي تتجمع معانيها من حصيلة الإيماءات والإشارات بالقياس إلى اللغة العربية الحية المبينة التي تتوالد بالاشتقاق الخصب، لتقدم في سباقها مع علم الإنسان ويقينه وشعوره كل ما هو

بحاجة إليه من اللفظ الذي يشرق بداخله معناه، كأنه خلق به منذ الأزل، وإن كان وليد لحظته، وبديهته.

فإذا كانت هذه اللغات، مع انقراض بعضها، واقتراض بعضها من بعضها، وتزايد المفصليات في مركباتها المهمة، وبلوغ أصحاب هذه اللغات في هذا العصر أقصى ما يسوق إليه التحجر بالإلحاد، والإخلاد إلى الأرض، والعدوان على الإنسانية، والتجارة بالحرب، والتهديد بتدمير العالم، والغرق في أمراض النفس والجنس.. وإذا كانت آدابها قد أفلست، ومسارحها قد انطفأت، وتجارة السينما بها قد دخلت مرحلة الحرب اللاأخلاقية على الأخلاق، والتجارة العلنية بالدعارة.. فهل هؤلاء في مراحل احتضار حضارتهم هم الذين نفرض على لغتنا العربية الغالية أن تنحني أمام هلوساتهم بالاحترام، وأن تتبذل فيما لا تحسنه العفيفة لتنطق بالهجر، وتحترف الكذب معهم، وتميل برأسها وتهمس، وتغمز بعينها وتتأود.. وتعرض مآثرها ومفاخرها للسكارى واللصوص.. وتبيح حصانتها طهارتها للتمثيل والتنكيل!؟.. طاعة لهؤلاء الذين بعد أن تحطمت على التجارب كل فلسفاتهم ركبوا ظهر العلم ليوجهوه إلى الإلهاء والإفناء والتدمير الشامل!؟

كيف.. وقد بدأنا نحيا وبدأوا يموتون..؟.. كيف وبرغم كل ما فعلوه قبل الإسلام من مذابح.. وبعد الإسلام من حروب.. وبعدما بعد الإسلام من مؤامرات بالكتب والنظريات، وبالتبشير والإرساليات.. لازلنا أحياء لم ننقرض.. وظاهرين في مجتمع العالم ولم ننسحق.. وواعين ونحن نسبح في بحر المؤامرات المتنوعة أن صخرة نجاتنا في اللغة، ومنارة وحدتنا وتقدمنا في القرآن.. وأن أيدي شعوبنا رغم شتاتها تتلامس، وأن مدركاتها تتقارب، وهي تتحرك صامدة باتجاه القرآن لتحيا بشريعته، وناشطة في استحياء اللسان العربي لتجتمع وتتوحد في إيقاعه.

ولئن كان هذا في بعض غفلات من وضعوا على رؤوس أفكارهم قبعات الغرب والشرق – أمرا محالا.. أو احتمالا أقرب منه أن تنفجر الأرض بنيزك في الفضاء، فلقد كانت مثل هذه الغفلات راسخة على عقول عمالقة الروم والفرس قرونا طويلة، عاثوا فيها فسادا في الوطن العربي طولا وعرضا، حتى إذا ما ضاقت الأرض على جميع من فيها بما رحبت، وأطبقت الأزمات والمجاعات والصراعات من كل جانب – أذن الله فظهرت وحدة العرب بالإسلام، من حيث لم يتوقع أحد من أقرب المحيطين بهم، والمحتقرين لشأنهم، وظهرت شمس الإسلام بالعرب، متجهة نحو العالم بدفء السلم، وفي العلم، حتى بلغت بضوئها وفيئها ودفئها أطراف الأرض.. وتضاعفت آدمية الناس.. وذاب أكثر الجليد في بلاد الظلم والجليد.

لقد كان هذا هو وعد الله قبل أن يكون.. ولا يزال هذا هو وعده الذي نسير تحته حتى يكون.. وعده في القرآن.. وسنته في قصص القرآن!